وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

# سمفونية إفريقية

## مجموعة قصصية

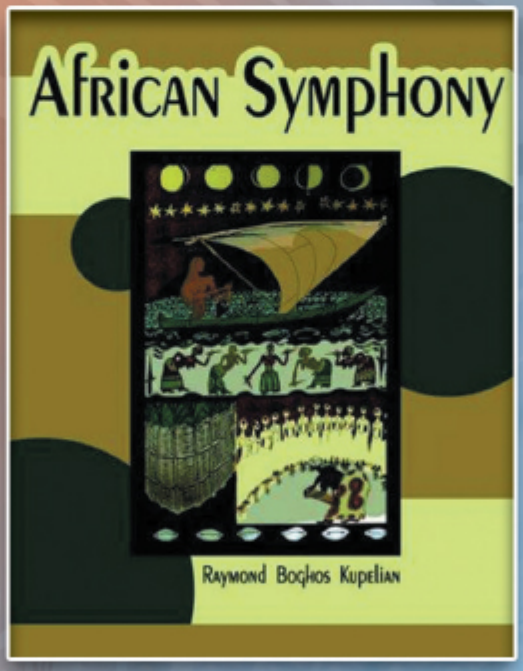


تأليف: رايموند كوبليان
ترجمة: شوكت يوسف

آفاق ثقافية
١٠٨

# سمفونية إفريقية

# آفاق ثقافية

رئيس مجلس الإدارة
**رياض عصمت**
**وزير الثقافة**

المشرف العام والمدير المسؤول
**محمود عبد الواحد**
المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير
د. نهاد الجرد

# سمفونية إفريقية

مجموعة قصصية

تأليف: رايموند كوبليان
ترجمة: شوكت يوسف

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

**العنوان الأصلي للكتاب:**

**African Symphony**

by

Raymond Boghos Kupelian

**آفــاق ثقافيــة**
**العـدد (١٠٨)**
**نيسان ٢٠١٢م**

---

سمفونية إفريقية: مجموعة قصصية/تأليف رايموند كوبليان؛ ترجمة شوكت يوسف.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ١٥٢ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١٠٨)

١- ٨٢٣ سر ك و ب س ٢- العنوان
٣- كوبليان ٤- يوسف ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

---

# الإهداء

***إلى شعب سيراليون الجميل***

***وشعوب إفريقيا الغربية،***

***مع الأمل في انتهاء معاناتهم،***

***والنجاح في كفاحهم من أجل حياة أفضل.***

# تقديم

ولد الكاتب رايموند بوغوص كوبليان ابناً لأسرة أرمنية الجذور في مدينة الإسكندرونة السورية في ٢٤ أيار/ مايو عام ١٩٣٦. بعد عامين من هذا التاريخ، وإثر تخلي فرنسا عن هذه الأرض السورية لتركيا، وجدت أسرة كوبليان نفسها - شأنها شأن كثير من السوريين - مضطرة للنزوح عن موطنها، ثم الاستقرار في بيروت بلبنان. عمل رايموند صغيراً في ورشة لإصلاح السيارات بعد أن ترك المدرسة بسبب مصاعب مادية وظروف قاسية عاشتها الأسرة. نشر قصته الأولى في عام ١٩٥٥ في دورية أرمنية محلية. هاجر، ككثير من اللبنانيين، إلى أفريقيا طلباً للرزق - أولاً إلى ليبيريا، ثم إلى سيراليون التي استقر فيها وصار مع مرور الزمن صاحب ورشة ميكانيكية لإصلاح وتجهيز السيارات. في هذه الفترة، وفي دولة سيراليون الفتية المستقلة حديثاً، بدأت فعلياً سيرته الأدبية. هاجر كوبليان من جديد إلى الولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٧٦ إثر نشوب الحرب الأهلية اللبنانية ويقيم الآن في مدينة لوس أنجلوس.

تتجلى في "سمفونية إفريقية" معرفة الكاتب العميقة بمجتمع إفريقيا الغربية عموماً وسيراليون بوجه خاص، التي تحصلت له

عبر انخراطه في هذا المجتمع ومعايشة ناسه في حياتهم اليومية والعملية بحكم طبيعة عمله وشخصيته الاجتماعية. كما يتجلى في هذه المجموعة القصصية أيضاً تعاطف الكاتب الحميم مع السكان الأفارقة الأصليين الذين عانوا طويلاً من ثقل النير الاستعماري ومن ظلم الإنسان الأبيض عموماً الذي ما فتئ يستغل تخلفهم الحضاري لاستنزاف ونهب ثرواتهم وتدمير بيئتهم الجميلة وامتهان كرامتهم.

هكذا نجح كوبليان في تقديم لوحة بانورامية مدهشة ومثيرة لواقع مجتمعات غرب إفريقيا في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم حيث عاش وعمل، ولأحلام مواطنيها بالتحرر والتنمية والعيش الكريم غداة الاستقلال الوطني، ثم بداية انكسار هذه الأحلام لاحقاً. وعلى هذا الأساس شكلت هذه المجموعة القصصية بحق «سمفونية إفريقية» واستحقت بجدارة هذا العنوان.

**المترجم**

# قصة الألماس(*)

- بريق الألماس، مظهره، وحتى ذكره أثار فيَّ ما يشبه القرف، نوعاً من الاشمئزاز. صار عندي حساسيّة من هذا الحجر اللعين.

صمتَ محدثي لحظةً مستحثاً رد فعلي. كان رجلاً ذا عقل راجح، درس الحقوق في إنكلترا، وتدرَّبَ هناك بضع سنوات في مجال القانون قبل أن يُعيّن لاحقاً قاضياً في منطقة مناجم الألماس.

تابع كلامه:

- نحن شعب (كريّو) - بوصفنا الطبقة المتطورة في البلاد - نؤْثر الوظائف الحكومية والمهن الحرة الأخرى، مثل المحاماة والطب والتعليم، على العمل اليدوي. كنّا السادة في مجال

(*) شكّل مضمون هذه القصة أساس فيلم سينمائي أميركي بعنوان: (Blood Diamond) حسبما قال لي المؤلف في سياق مراسلة إلكترونية بيني وبينه - المترجم.

التجارة فترة طويلة، لكننا خسرنا المنافسة في نهاية الأمر مع منافسينا الشرق أوسطيين الذين قدموا إلى هنا مع بداية القرن وانتشروا في هذه الأصقاع موجةً إثر موجة مثل الجراد الحقيقي. والآن صار رجال الأعمال القدماء من شعب كريّو ومحالّهم الصغيرة الكئيبة مجرد ذكرى وآثاراً عتيقة.

صمتَ. لم يظهر على وجهه أثر لانفعال. تكلم ببرود، حاكم الأمور بهدوء، وأوحى الانطباع الذي تركه بأنه رجل متبصرٌ وذكي.

تابع كلامه كما لو كان يقرأ أفكاري:

- أعرف أنكم، أنتم الغرباء، شكّلتم انطباعاً سطحياً مسبقاً عنّا نحن شعب كريّو. كنا بنظركم ضعفاء عاجزين، سكارى وفاسقين نطارد النساء، وعزوتم انجذابنا إلى الوظائف الرفيعة إلى طبيعة طفيلية إتكالية وكسولة. وعلى هذا الأساس جرى الزعم بأننا سمحنا للغرباء بنهب مناجمنا وثرواتنا. هنا ربما تكونون محقين جزئياً. فقد أوصلنا فلسفتنا فعلاً إلى الحد الأقصى. إذا كانت غاية الحياة، في نهاية المطاف، هي السعادة، فأعتقد أننا حللنا القضية. بلغنا السعادة دون أن نضع يدنا على هذه الأحجار البغيضة المسماة "ألماس". أعتقد أننا أصبحنا أكثر رقياً، أكثر تحضراً بتركنا العمل المنجمي الشاق والتنقيب عن المعادن للغرباء القادمين.

يبدو أن لمقته الألماس أسباباً أعمق. قلت له:

- هذا ميراثكم الوطني. السكان الأصليون هم من يجب عليهم الاستفادة من ثروات بلادهم بالكامل. لكن ينظر المرء فيما حوله فيرى أطفالاً ببطون منتفخة من سوء التغذية وفقراً متفشياً.

استأنف كلامه قائلاً:

- في هذا الزمن لا خيار أمامك، إذا كان عندك بلد صغير غني بالمعادن والأحجار الثمينة والفلزات أو النفط، سوى مشاركة دولة كبرى في ثروتك. إذا لم يحصل ذلك، إما أن تدفع تلك الدولة الكبرى جارك ضدك مرغمة إياك على إنفاق دخلك الوطني على السلاح والذخيرة، أو تفجّر البلاد من الداخل بإطلاق صراعات بين فئاتها. أطلق تنهيدة وتابع: - خلال الأربعين سنة الأخيرة استغلت شركات أجنبية الثروة الأساسية لهذه البلاد - مناجم الألماس. ماذا أعطونا بالمقابل؟ مدارس؟ مراكز تدريب؟ معامل؟ إذا أجرينا حساباً سنرى أن السكان الأصليين كانوا الأقل انتفاعاً من الثروات التي استخرجت من باطن أرضهم. في منطقة (كونو) نهر اسمه (بوفين) يعج بالتماسيح أطلق عليه السكان المحليون اسم "النهر القاتل"، إذ يموت فيه كل عام حوالي مائتي شخص يحاولون عبوره بقواربهم الصغيرة. لم تسعَ الشركات الأجنبية إلى بناء جسر - حتى من قبيل المساعدة الإنسانية - من أجل المحافظة على حياة الناس. الآن يحاول النائب المنتخب حديثاً عن تلك المنطقة - وهو شاب حيوي اسمه (ديباما) - جاهداً بناء جسر بواسطة جمع التبرعات. كنّا

متساهلين للغاية تجاه الأجانب. لكن ليس من الإنصاف إلقاء المسؤولية في مصائبنا ومصاعبنا على الأجانب دوماً.

فذات عام خصصت شركة استخراج الألماس مبلغاً معيناً لتطوير المنطقة. لكن زعماءَنا المحترمين استأثروا بهذه المخصصات الزهيدة لأنفسهم سنوات، وفي حين كان من المفترض فيهم المطالبة بتخصيص مبالغ أكبر، لكنهم، بوصفهم مذنبين، آثروا الصمت، وضمنوا لهذه الشركات إمكانية زيادة أرباحها. مازال الإفريقي فردياً بطبعه. لكن عليه أيضاً أن يكتشف فكرة الوطن، أو إطاراً وطنياً لتفكيره.

هنا قاطعتُه قائلاً: - وما علاقة الألماس بهذا كله، وأنت تراه المذنب؟ يجب توجيه اللوم لمجموع الناس.

- نعم يا صديقي - قال هو - ذلك الحجر الثمنين مغلفٌ بهالة من الرومانس، هو يزيّن إصبع وجيد ويدي المرأة المحبوبة. لكن إذا نزعنا هذه الهالة التي تغلّفه لن يبقى ثمة منه سوى حجر عادي صلب جداً ومشع يذبح الناس ويقتل بعضهم بعضاً من أجله. يمكن أن تعترض فتذكّرني بأن الألماس لا غنى عنه في الصناعة. لكن عبقرية الإنسان باستطاعتها، ربما، إيجاد بديل له. هل فكرت مثلاً بذلك؟ أنت تكلم رجلاً نظر خلال ثماني سنوات بمئات الدعاوى القضائية الفظيعة في منطقة الألماس. نعم، لو تدري النساء فقط كمَّ الدموع والعرق والدم الذي تعمدتْ به قطعة الحجر تلك المعلّقة على صدورهن؟!

أصغيتُ إليه بتلهف. لم أشأ كبح اندفاعته، فتابع فيما نظره مازال مثبتاً عليَّ:

- إذا أردت رأيي بصدق أقول لك بأن اكتشاف الألماس لم يجلب لنا سوى البلوى. قبل حمّى الألماس كنا ننتج الأرز. والآن نستورد أكثر من نصف حاجتنا من الأرز بأسعار باهظة. أسطورة الألماس سحرت البلاد كلها. أذكر كيف، عندما كنت طفلاً، ترك الناس محاريثهم وحقولهم وأعمالهم ومضوا إلى (كونو). فجأة اختفت اليد العاملة وهُجرت حقول الأرز. ذهبوا، حفروا، قلبوا التراب واختطفوا الألماس بأيديهم. ثم عادوا وبادلوا الحجارة الثمينة بكيس أرز. لم يكونوا يفقهون شيئاً في تلك الأيام. وأخذ التجار الشرق أوسطيون - وكانوا في معظمهم أميين ـ الغنيمة وبنوا دوراً و قصوراً في سفوح مدنهم، في حين بقي أناسنا عراة وبلادنا قاحلة ووعرة. الآن صار الناس، وقد فتحوا عيونهم، يبيعون القطع الزجاجية العادية على أنها ألماس. لكن تأخروا كثيراً... صار الحصول على الألماس صعباً، ولم يعد لدى المزارعين الخبرة ولا الصبر على الزراعة وجني المحصول. لم أتكلم بعد عن فساد الروح. فلنأخذ، على سبيل المثال، أي واحدٍ من آلاف العاطلين المتسكعين في الشوارع . إذا ما حاول أحدهم ذات يوم المضي إلى منطقة كونو لتجريب حظه سيصبح في أفضل الأحوال "صبي سين سين" (sen sen boy). وهل تعرف ماذا يعني "صبي سين سين"؟

ليلاً عندما تحفر الجرارات والبلدوزرات الأرض وتجمع أكواماً من التراب يتسلّل صبيان سين سين عبر الشريط الشائك

إلى هناك وينخلون التربة الغنية حتى الصباح. تبقى المسألة متعلقة بالحظ. فغالباً ما يرجع هؤلاء إلى بيوتهم، إلى مآوي الصفيح التي لا يتعدى حجم واحدها خمّ دجاج، بأيدٍ فارغة منهكين جائعين. وإذا ما حالف صبي الحظ وعثر على قطعة ألماس قيّمة يسارع في اليوم التالي إلى شراء سيارة، ترانزستور، ساعة ذهبية، خاتم وطقم آخر موضة... ثم تحوم حول هذا الأبله فتيات الشوارع إلى أن تسلبه كل ما لديه... مادامت جيوبه ملأى لن يكلف نفسه القيام بأي عمل. وهكذا سرعان ما يفلس ويبدأ ببيع أغراضه واحداً إثر آخر. وعندما لا يبقى لديه ما يُباع ويعاني الجوع بضعة أيام يعود إلى الشريط الشائك. في حالة أخرى يوظّف صبي سين سين، إذا كان ذكياً، نقوده في شراء "لاندروفر" مستعملة ويستخدمها مع بعض أصدقائه في تهريب أكياس ملأى بالتربة المعدنية إلى مدينة سافادو. هنا يكون الزّبُن من رجال الأعمال والتجار الشرق أوسطيين جاهزين لشراء كل كيس بخمسة جنيهات إسترلينية. تُعد هذه الصفقة بالنسبة للشاري مسألة حظ، سَمّها "يا نصيب سين سين!". سينخل هذا الشاري التراب بنفسه، وقد لا يعثر، بعد قضاء ليلة منهمكاً في عملية النخل، على شيء من الألماس. لكن لهذه العملية من التنقيب فوائدها بالنسبة للشخص الشرق أوسطي المتخم، إذ سيقوم في هذه الحالة بتمرين رياضي ضروري له. وثمة أيضاً أشقياء يسعون إلى التنقيب في أعماق الغابة المظلمة. أتذكّر عدة حوادث من هذا القبيل. ذات مرة قضى جماعة من

هؤلاء نحبهم في حفرة عميقة حفروها عندما انهارت فوقهم فجأة التربة الطينية وطمرتهم أحياء. وحصل أيضاً أن استثار اكتشاف منطقة غنية بالألماس بعض صيّادي الثروة إلى حدٍّ دفعهم لقتل رفاقهم في الموقع...

فتوجد أنهار أيضاً قيعانها ملأى بالألماس. فابتدع لهذه الغاية بعضهم وسيلة بدائية للتزود بالأوكسجين. وذات مرة عثر صديقان مصادفة على عدة قطع ثمينة في أحد الأنهار، لكن فجأة أغرق الرجل الذي كان في الأعلى على اليابسة صديقه الغاطس في عمق النهر بقطع الأنبوب الذي يزوده بالأوكسجين.

وجرت عملية سطو من عيار عالمي حقاً في بلادنا أيضاً. كان الرأس المدبّر لهذه العملية رجلٌ شرق أوسطي اسمه شامل. فتهبط طائرة صغيرة مرة في الشهر في وقت محدد لنقل حجارة الألماس العائدة لشركة (دايمنكو) إلى المدينة. هبطت الطائرة في مهبط صغير تابع لمطار (هاستينغ) حيث ستُنقل البضاعة إلى سيارة، ومن ثم مباشرة إلى إدارة دايمنكو. هنا سيتم تنظيف الحجارة الماسية ووزنها وتصنيفها بدقة، ومن ثم إرسالها إلى إنكلترا في رزم محفوظة في صندوقٍ خاص. استمرت هذه المغامرة عقوداً من الزمن بشكل منتظمٍ وبدقة قصوى. أثق بأنك لا تفكر أني أكره رفاقك البيض. فأنا أعرف كثيرين من الشرق أوسطيين الجيدين الذين قدّموا خيراً لهذه البلاد. بيد أن الانتهازيين والمستثمرين قُساة القلوب كانوا أكثر عدداً مع الأسف.

يرجع تاريخ إقامة الشرق أوسطيين الأوائل في هذه البلاد إلى تسعينيات القرن التاسع عشر؛ كان هؤلاء شرفاء مُجدّين هربوا من الحكم العثماني الجائر ونجوا بجلودهم. كانوا في معظمهم فلاحين أميين. كان الواحد منهم في ذلك الزمن يحمل على كتفيه عبوتين تسعان عشرين ليتراً من الكيروسين لبيعها في المناطق النائية، في حين عمل آخرون باعة جوالين. نظراً لأن أبناء قبيلة (كريّو) في (فريتاون) كانوا مازالوا في ذلك الحين أمراء التجارة، ولم تُترك مهنٌ لآخرين، فضّل القادمون الجدد التوجه إلى المناطق البعيدة. ونظراً لأنه لم تكن لديهم الإمكانيات لإحضار زوجات من بلادهم، فقد اضطروا للاقتران بفتيات إفريقيات محليات. ومن هنا جاء هذا النسل الإفريقي - اللبناني المختلط. لكن سرعان ما صار المهاجرون قادرين على فتح حوانيت في تلك المناطق النائية.

وعندما اكتُشف الألماس في هذه البلاد جنى هؤلاء كأفراد معظم الأرباح. بادلوا بعض تفاهات حوانيتهم الصغيرة بقدر ما تتسع له راحة اليد من قطع الألماس. ماذا تتوقع من صبيان سين سين بسطاء؟ ليست لديهم فكرة عن الأعداد ولا يُحسنون الحساب. عندما يضع الشرق أوسطيون أيديهم على قطع الألماس المستحصل عليها بسهولة والرخيصة الثمن إلى حد لا يُصدق كانوا يطيرون بأحلامهم الجامحة. حينئذ عادوا إلى أوطانهم الأصلية، أحضروا زوجات لهم من بلادهم، ودَّعوا الأيام القديمة الصعبة وتخلوا عن أمهات أبنائهم الإفريقيات.

الآن وقد قدّمت لك موجز قصة الإنسان السوري(*) المحلي تستطيع بسهولة تكوين صورة عن رجل مثل شامل. استأجر هذا الأخير قوة كافية من السكان المحليين المسلحين وهاجم المطار وسطا على مجموعة نفيسة من الألماس يقدر ثمنها بخمسين مليون جنيه إسترليني. لم يتم العثور على الغنيمة بعد، لكن قُبض على شامل وعلى شركائه في الجريمة من أبناء قبيلة (فولا) وأحيلوا إلى القضاء.

قطع القاضي حديثه. انتظر لحظة، كما لو كان يستعيد عزماً، ثم تابع:

- أنا متأكد أنك تعرف ما انتهت إليه هذه القضية. تلقّى قاضٍ مشهور جداً من قبيلة (كريو) رشوة قدرها مائة ألف جنيه إسترليني، وأُخلي سبيل المتهمين على أساس "عدم كفاية الأدلة".

إذا كانت هذه الحادثة حالة سرقة صرف، فإن جريمة أخرى شنيعة حُكي عنها كثيراً في الآونة الأخيرة فاقت كل الحدود. أرى من الصعب الدخول في التفاصيل. رجل أعمال معروف من قبيلة (فولا) أيضاً اشترى قطعة أرض في منطقة (كونو) وأرسل أفراداً من جماعته لحفر مناجم بطريقة عمل بدائية. أوكل أمر الإشراف على العملية لأبناء عم وأقارب له. تخيّل عشيرة إفريقية مافيوية، كل أفرادها أتباع موالون بعنف للأخ الأكبر (كوتو).

---

(*) واضحٌ أن المؤلف يعني بكلمة "سوري" هنا الإنسان المنتمي وطنياً إلى سوريا الطبيعية أو الشرق الأوسط بوجه عام - المترجم.

"الفوليون" جماعة متعطشة للدم. كثيراً ما يسممون أعداءَهم، أو خصومهم المنافسين لهم في العمل بواسطة أعشاب غامضة، أو على الأقل يرشّون ضحاياهم بنوع من مسحوق يسبّب حكة شديدة، وتتطور هذه الحكة إلى جرح يقتل صاحبه بالتالي.

قطع القاضي حديثه فجأة من جديد. مسح العرق عن جبهته بمنديل عريض، وأتى على قدح الجعة كاملاً، ثم تابع:

- أتى شاب غير ذي خبرة اسمه (ممادو) للعمل عند (الفوليين) مقابل بعض الأرز. لم يكن يعرف شيئاً عن المناجم. عمل في نخل التراب مستسلماً مطاطئ الرأس طوال اليوم كما لو كان آلة. لكن إخلاصه اللاإعتيادي أثار شك المراقبين. فتولّى مراقبة هذا المبتدئ الغريب أكثر المراقبين قسوة ووحشية.

كان الجو رطباً وخانقاً. طنّ البعوض في كل مكان. لم يكن (ممادو) معتاداً على مثل هذا العمل الشاق. فبدا التراب في يديه مثل طنٍ من الرصاص، وكما لو أن ذراعيه لم تعودا له. هزّ بشكل آليٍ محتويات المنخل وألقى بها جانباً. لم يكن فيه شيء عدا الحجارة العادية. رفع بعدئذٍ يده اليمنى إلى جبهته، وحاول، بعد لأي، مسح العرق الحار المتصبب إلى عينيه.

تابع محدثي كلامه باشمئزاز قائلاً: - لكن لم تغفل عن شيء من كل ذلك عين المراقب (باري) الذي يرى في مثل حركات اليدين هذه آثاماً مميتة. في الحقيقة كان ما قام به هذا العامل الشاب بصورة غير مقصودة أو متعمدة خطأ ذا عواقب رهيبة. حتى بدون هذا الخطأ كانت لدى (كوتو باري) شكوك إزاء هذا القادم الجديد الغامض. اندفع نحوه، أمسك به وجرّه حتى

وصل به إلى فسحة في الغابة. لم يعرف (ممادو) سبباً لتصرف المراقب المفاجئ معه. هل كان هذا مكافأة على بحر العرق، على إذعانه وإخلاصه في العمل؟

"أخرجْ الحجر الذي دسستَه في فمك!" جأر (كوتو باري) شاهراً خنجره. تبرأ (ممادو) دامع العينين مذعوراً من ارتكاب أي فعل خاطئ.

"أعدْ الحجر يا ابن الكلب!" صاح كوتو غامضاً.

تخبط (ممادو) عند قدمي (كوتو) راجياً الحفاظ على حياته. لكن (كوتو)، الغاضب جداً والقلق على مصير قطعة الألماس التي زعم أن (ممادو) ابتلعها، شدّ وثاق الشاب وأعمل الخنجر في بطنه... شقّه من رقبته حتى خصيتيه كما تُشق الماشية. أخرج بعدئذٍ المعدة والأحشاء ومزّقها بحثاً عن قطعة الألماس. لكن عبثاً بالطبع...

ختم حديثه متجهماً: - (كوتو باري) في السجن الآن. لكن نظراً لأن المحكمة في عطلة قضائية صيفية لم يجر التصديق على العقوبة بعدُ. أدعوك لحضور جلسة محاكمته. تعال واسمعْ قصة الألماس.

وعدتُه بالمجيء. لكنه، هو نفسه، لم يأت.

قبل بضعة أيام من افتتاح المحكمة العليا وُجد صديقي القاضي ميتاً في فراشه. موت فجائي. أظهر تشريح الجثة بأنه مات مسموماً.

# الخلاسي

## The Mulatto

دلّ نباح الكلاب في الخارج على دخوله عبر البوابة الحديدية الفخمة. عندما دخلتُ غرفة الطعام كان جالساً هناك أمام حاجز البار آخذاً رأسه المستديرة بكلتا يديه ومدمدماً بغضب:

- ابن زنا، لا تنسَ أنك إنسان أسود. لا تنسَ، لا تنسَ أبداً...

دلفتُ خلف حاجز البار دون أن أربت، كعادتي، على كتفه. عندما رأيت وجهه اتضح لي أن أمراً ما فظيعاً حصل له. أسرعتُ بجدية عامل بار ماهر بصبّ قدحين من الشراب وناولته صامتاً أحدهما. عبّ في جوفه دفعة واحدة كل ما احتواه القدح. ثم نظر مباشرة في عينيّ وانفجر غاضباً:

- لماذا أنتم البيض شريرون هكذا؟

لم أكن قادراً على الإجابة على سؤاله المعقد الذي نشأ من خلفية تعقيد وضعه. كان خلاسياً. كان عليه أن يعرف الجواب... فقد حمل دمَ كلا والديه بقدرٍ متساوٍ. واجهتني مثل هذه الأسئلة آلاف المرات ولم أجد جواباً عليها.

استمر يكرر بإلحاح لنفسه: "ابن زنا، لا تنس أنك إنسان أسود، لا تنس أبداً..." إلى أن أعياه الانفعال وهمد صوته. لحقتْ به منذ أيامه الأولى في سرير الطفولة وصمة "ابن زنا"، ومازالت تسفع كيانه على مدى أربعين عاماً.

لا داعي لأن يتكلم هذا الرجل الدامع العينين كي تفهم ما حدث له. كربُه بذاته يحكي. صليبه الثقيل شاهد على العار الذي سببه صالبوه.

جمعتني وإياه على مدى سنوات عديدة صداقة متبادلة تجاوزت سويعات لقائنا في البار. كانت وراثته الجزئية للون الأبيض ودراسته في بريطانيا بوابته إلى المجتمع الأوروبي، حيث اعتبر هنا نداً لسواه، وحصل لاحقاً بموجب ذلك على وظيفة مدير في شركة إنكليزية. اعتبره زملاؤه الأوروبيون صنواً لهم، وعمل هو، من جانبه، كل ما بوسعه للمحافظة على هذا المقام. تذكّر جيداً حياته المدرسيّة في بلده التي ميّزتها التفرقة العنصرية. آنذاك احتقره السود بوصفه أبيض، في حين لم يُعره البيض - وكانوا قلة قليلة - أدنى اهتمام. فكان غريباً تماماً وسط هؤلاء وأولئك.

تركه والده الأبيض منذ زمن بعيد وعانى الظلم صغيراً. حتى إنه قرّر مرّةً الهرب إلى عمق الغابات العذراء بعيداً عن الحضارة الإنسانية. كان عاره بوصفه خلاسياً وابناً لأب مجهول أفظع من ألمه الناجم عن كونه أسود السحنة، حتى في ظل النظام الكولونيالي. فكّر الانحياز إلى طرف واكتساب الشرعية وسطه. وهكذا فضّل اللون الأبيض، لون غالبية سكان هذا الكون. ازدرى

دوماً علماء الاجتماع والإنسانيات الذين رسمت تعاليمهم مستقبل العالم كفسيفساء أحادية اللون.

جذبتْه بريطانيا العظمى. توجّه إلى عاصمة الإمبراطورية للتعلم والتثقف واكتساب لهجة الإنكليز وسلوكهم. دفعه التلهف للاختلاط بالناس البيض، وهو بعدُ فتى قليل الخبرة، إلى الانخراط في أوساط المثليين الجنسيين المشبوهين. لم يشعر هنا بأية تفرقة عرقية أو جنسية. شوّه هذا الوسط الجديد تصوراته غير الناضجة وحرفها عن مسارها الخاص في اتجاهات شتى. إقامته سنوات طويلة تحت سماوات حاجبة لأشعة الشمس جعلت بشرته مائلة إلى البياض. خبا لونه تدريجياً في سياق سنوات طويلة قضاها تحت سماوات مكفهرة. تلاشى شعاع الشمس الإفريقية في قلبه وعينيه. بدأ ينظر إلى العالم وناسه من زاوية بعيدة صغيرة بعينين زجاجيتين.

لاحقاً ذات يوم مشمس من شهر نيسان قفل عائداً إلى الشواطئ الإفريقية عشية حصول بلاده على استقلالها الوطني. هنا وجد نفسه غير قادر على تنسم العبير الطري الحلو للحرية المكتسبة حديثاً.

أثارت اشمئزازه المدينة ببيوتها الصغيرة وطرقها القذرة، وقرف من رائحة عرق مواطنيه المتدافعين في الزحام شبه عراة. للحظة ساورته نفسه، قبل فتح حقيبة سفره، العودة من حيث أتى واضعاً منديله على أنفه.

لكن ثمة في المدينة زوايا جميلة أيضاً، ولاسيما في أحياء الطبقة الراقية. استُقبل هنري في هذا الوسط المترف المتميز

باختلاط الجنسين بترحاب كبير. تكلّم الإنكليزية بلهجة الإنكليز أنفسهم مع مبالغة في إمالة فمه أثناء النطق أعجبت الجميع، في حين اعتُبرتْ حركاته الأنثوية الطابع دليل أناقة وكياسة.

كان له حضور في كل اللقاءات والمناسبات الاجتماعية. اعتاد أيضاً - ككل السود الآخرين المتعلمين في أوروبا - ازدراء أخوته السود والحطّ من قدرهم أمام الغرباء. وجد بفعله هذا طريقة بارعة لإخفاء النصف الآخر من هويته.

نعم، ولمَ لا؟ فحتى معظم الوطنيين المتطرفين من ذوي البشرة السوداء مستعدون للتخلي عن لونهم لو كان ذلك ممكناً، كما تخلع الأفعى جلدها.

كان منصبه مديراً لشركة مكافأة له على إخلاصه للنظام الكولونيالي، كما على كفاءته الشخصية. قدّمه زملاؤه للقادمين الجدد باعتباره "واحداً منهم"، وفي ذلك بعض النفاق طبعاً. خدم أسياده البيض بإخلاص على حساب الحقوق الإنسانية لأخوته السود.

مع مرور الزمن ضعف اندماجه، فحاول الحصول على قطعة من الكعكة الكولونيالية.

مع اقترابه من سن الأربعين قام بعده محاولات غير ناجحة للاقتران زواجاً بامرأة إنكليزية. لكن نظراً لعدم قدرته على التغلب على لا مبالاته إزاء الجنس اللطيف لم تتحقق نزوته.

كانت بدأت قبلاً مرحلة الرفض المؤلم التي تسم حياة رجل مثلي الجنس تقدّم به العمر. بعدئذٍ حلّ خلاف بينه وبين زميله الأبيض.

والآن هاهو جالس قبالتي... يضرب بكلتا قبضتيه المنضدة أمامه فيتراقص قدحا الشراب من جرّاء ذلك، مكرراً الكلمات ذاتها التي قذفه بها زميله الأبيض: "ابن زنا، لا تنسَ أنك إنسان أسود، لا تنسَ، لا تنس أبداً".

- لن أنسى، لن أنسى ما دمتُ حياً. لن أنسى أبداً. وإذا ما نسيتُ سيكون ثمّة دوماً من يذكّرني. أنا جبان، جبان نَتن...

فعل الكحول فعله. هدأت ثورته وتطامن تدريجياً. تذكر واحدة من فورات غضبي سابقاً كأرمني عانى من التمييز العنصري... خفّ ألمه وعاد الأمان إلى روحه. قال وهو يهمّ بالمغادرة:

- اعتدتُ اعتبار أفكارك متطرفة جداً. لكني أحسستُ اليوم بكل كياني أنّ حب المرء لشعبه شعور سامٍ ونبيل حقاً. سبيل عودتي إلى شعبي سيكون صعباً وشائكاً. لكني صمّمت. لن أنسى لوني الحقيقي.

استقال من عمله في الشركة الإنكليزية. ابتاع بمدخراته قوارب صيد سمك. قصد شواطئ مسقط رأسه المغمورة بالشمس مشمراً عن ذراعيه. نشر شبكة صيده مع الصيادين الآخرين واختلط عرقه بعرقهم. تغيّر مظهره. تكثّف لونه. تغلغلت أشعة الشمس في مسامات جلده الأسود ونشرت دفأها بداخله. توهجت النار في قلبه كحمم البركان وانعكس وهجها في عينيه.

غدا هنري الابن الشرعي لشعبه.

# بين الحب والموت

## Between Love and Death

عليّ كان يموت.

يوماً بعد يوم ومرضٌ غامضٌ مستمر يتأكّل جسد الفتى المسكين ويُلاشيه. كان كل ما استطعنا فعله هو مراقبة التلاشي التدريجي لأنفاسه الأخيرة مع عجزٍ عن تقديم مساعده له. فعل الشباب، زملاؤه - وكلهم مؤمنون حتى نخاع العظم بالقضاء والقدر - كل ما بوسعهم بأمل تليين القلب القاسي كالحجر لابن قبيلة "فولا"...

نحن البيض أيضاً فعلنا أفضل ما بوسعنا صوناً لحياة عليّ، بما في ذلك إرساله إلى طبيبنا، علماً أن له الحق الكامل بالحصول على رعاية طبية مجانية في المستشفيات الحكومية. كما أننا استمرينا في دفع راتبه الشهري برغم عدم قدرته على مزاولة العمل.

فقط بعد مرور وقت طويل علمنا أن الشباب أخفوا السّر الدفين والدراما المشؤومة الكامنة خلف المشهد. ففي أوساط

القبائل الإفريقية كل ما يمكن أن تلمسه أو تراه أو تسمعه خادع بالكامل. وإذا فشلت في نزع ستارة السّرية يضلّلونك بكل سهولة، وبخاصة إن كنت أجنبياً.

فَقَدَ عليٌّ، بعد علاجه من قبل طبيبنا الأبيض على مدى شهرين دون جدوى، الكثير من وزنه إلى حدٍ بدأ يشبه هيكلاً عظمياً. عاد المريض أخيراً إلى قريته، إلى مَسقط رأسه بناءً على مشيئة ورجاء أصدقائه ومُحبيه.

غالباً ما لجأ عمالنا، فاقدين الثقة بالطب الحديث، إلى الريف البعيد، إلى الأساليب البدائية المجرَّبة، طلباً للشفاء. تجدر الإشارة إلى أنّه نادراً جداً ما فشلت نباتات الغابة وروحها في العلاج عندما لم تُجدِ أدوية الرجل الأبيض... فعلاً، حتى عندما يلجأ هؤلاء الشباب إلى أدوية البيض، فإنهم لا يهملون ولا ينسون أصل كل دواء وكل علم - الغابة. الغابة ملاذهم الأخير، معقل الرجاء الأخضر.

وصل عليّ نصف ميتٍ إلى عمق الغابة، حيث كوخ أهله الطيني. عندما رأى القرويون ابنهم الشبيه بالشبح المتمايل أطلقوا صيحات مخيفة غير مصدقين أعينهم. ورشّت أم علي، التي كانت جالسة أمام المدخل، التراب على رأسها.

أُخذ عليّ فوراً إلى الطبيب الشعبي المحلي الذي جرّبَ أنواعاً شتى من العلاج قديمه وحديثه لمداواة المريض العائد من المدينة. لكن دون جدوى. ما كان بإمكان الطبيب المحلي إلا أن يقرر في النهاية أنَّ علياً كان هدفاً لعملية سحر خطيرة على

يدي الساحر القدير (جوجو). فكّ سحر جوجو، برأيه، متعذر، وذلك على أية حال فوق قدرة مأموريه طاردي الأرواح الشريرة.

عليّ ليس بحاجة إلى طول تفكير طويل ليدرك من أين أتاه السحر. لكنه، حتى وهو على فراش الموت، لا يرغب في لعن تلك اللحظة عندما كان يرهز مثل الإنسان المتوحش في حضن (بنتو) زوجة صاحب الدكان ابن قبيلة (فولا). هنا أُغوي من قبل حواء من جديد ملتهماً التفاحة المحرمة. ويا لها من تفاحة! جدُّنا آدم خسر فقط جنة عدن كامتياز، في حين تخلى حفيده الإفريقي الآن حتى عن حياته.

استسلم عليٌّ لمصيره. فكر في نفسه - هاهو يدفع حياته ثمن لحظة متعة. سرعان ما وصلت أخبار السّحر الذي لا فكاك منه إلى المدينة، فصعق ما لا يُحصى من الرجال الذين عاشروا زوجات آخرين. تصل مثل هذه الأنباء المخيفة بواسطة (تام تام) إلى المدينة أسرع بما لا يقاس مما تؤمّنه خطوط إديسون الهاتفية.

كان عليٌّ مسروراً بالعودة إلى غابته. لم يود مغادرتها. استلقى دون حراك تقريباً تحت شجرة المانغو الكبيرة الظليلة مستمتعاً بتغريد الطيور التي تخفُّ لنقر الثمار الناضجة على أغصان المانغو.

في مثل هذه اللحظات استعاد عليّ ذكريات طفولته، تلك الأيام التي سبقت النداء الذي أغراه بالذهاب إلى المدينة. تذكّر كيف كان يثب بين أشجار المانغو وجوز الهند برشاقة نمرٍ صغير. لم يتمكن فقط من تحقيق أحلام طفولته، ولم يقدر فقط على

سقف سطح بيت أبيه بالصفيح، بل ونسي، بعد انتقاله إلى المدينة واكتسابه مهنة، مسقط رأسه والفلاحين، منزل الأهل في الغابة وأحلامهم العريضة. والآن هاهو قد وقع بغباء ودون معين ضحية جاذبية امرأة "فولية".

واأسفاه، أية إغواءات، أية خيالات ومفاجآت لا تحمل في طياتها المدينة السحرية! كان من الصعب مقاومة كل تلك الأشراك المبهرة. فكيف يمكن لامرئ قضى كل طفولته ويفاعته شبه عار وجائع أن يصمد أمام قوة جاذبية الأزياء الأنيقة والمتاجر الفخمة؟ وبرغم أن ربّ العمل الذي عمل عنده عليّ قد نصح عماله ذات مرة بحكم تجربة حياته الطويلة قائلاً: "ليست الحياة سوى رحلة من مأزق إلى مأزق"، لكنه لم يفقه معنى ذلك؟ أخذها آنئذٍ على سبيل النكتة وضحك من أعماقه ضحك رجلٍ أسود شبعانٍ لا مبالٍ. الآن وبعد أن أوقعه حب تلك المرأة في وهدة عميقة أدرك فجأة بغريزة بدائية مدى مأساوية تلك المسرحية الهزلية التي تسمى الحياة.

مع ذلك لم يندم على شيء. استذكر اللحظات الفاتنة التي استمتع بها وهو بين ذراعي بنتو، مع علمه أنها قد لا تُستعاد. واستذكر أكثر لحظات اللقاء المرتقب والمفعمة بالإثارة التي تركت أثراً لا يُمحى في صفحة ذكرياته. كانت تلك أُحبولة الثمرة المحرمة التي ضُربت بها الأمثال. كان لها طعم آخر ونكهة أُخرى تماماً...

قبل بنتو مارس عليّ بدائيته بكل عنفوانها. أخذ نصيباً وافراً من الاستمتاع بأجساد نساء قبيلته - (تيميني)، من الاستمتاع

بالجمال التيميني. لكنه بعد حين تعب من هذه العلاقات الجنسية العابرة المملة وتمنى علاقة طويلة مستقرة. فما زالت فكرة الزواج لدى قبائل أفريقيا السوداء محتفظة بكل بدائيتها مع حلول عصر الذرة.

إذا كانت المرأة الإفريقية مسافراً في قطار، فإن الرجل الإفريقي ناظرُ المحطة على خط الرحلة. استقبل عليّ دزينات من أمثال هؤلاء المسافرات، ومادامت المرأة الجديدة القادمة راغبة بالاعتناء بالرجل، من قبيل طبخ الطعام وغسل الملابس، فإنها تعتبر شرعاً زوجته، وللزوج بموجب هذا القانون غير المكتوب، كامل الحق في حب زوجته، وكذلك ضربها إذا لزم الأمر. وعندما يتراجع الاشتهاء الجنسي ويحل البرود في العلاقة يبلغ الضرب معدلات جديدة. بعدئذٍ وذات يوم تجمع المرأة أسمالها، تأخذ يديها بأيدي أطفالها الصغار، وغالباً ما يكون طفلٌ آخر في بطنها، وتغادر المشهد كما أتت، لكن تاركةً في هذه المرة آثار أظافر أنشبتها في وجه الذكر المتعسف.

كان جمال بنتو البريء هو ما نال من عليّ. كان مجرد حضورها ينير فجأة حانوت زوجها في الحي. يحق لرجال قبيلة فولا، بمقتضى الدين والعرف القبلي، أن يجدّدوا حياتهم مرة كل بضع سنوات. فيعمد واحدهم، متباهياً بتجدد حيويته الشبابية، إلى تدبُّر زوجة جديدة من غينيا والتخلص بصورةٍ دبلوماسية من القديمة.

الجمال الفائق لزوجة هذا الفولي هو ما دوَّخ علياً. كانت نصف عربية، وهذا ما أسبغ على بشرتها لوناً فاتحاً، لوناً

كهرماني الشكل وأورثها شفتين رقيقتين شهيتين وأنفاً صغيراً. وكان أبرزُ ملامحها عينيها الثاقبتين ورموشها الطويلة. أصبح عليٌ أسير جمال بنتو وراح يتبع كل خطوة تخطوها.

بدا زوج بنتوا الأشيب في صورة المغفّل، وأوصله إلى هذه الحالة ذهنيته التجارية. رأى في جاذبيته زوجته مجلبةً للجنيهات الإنكليزية. فالكلفة المرتفعة للمعيشة قد طالت أفريقيا أيضاً.

لم يسمح "الفوليون"، بوصفهم مسلمين محافظين، لنسائهم بالحصول على تعليم، واقتصرت ثقافة الرجال منهم على قراءة القرآن بلغة (ملابو). عرفت بنتو بضع كلمات فقط من لغة (كريّو). والآن صار الوضع في هذا الجانب أكثر إرباكاً لها، إذ اندفعت في علاقة غرامية.

برغم أن زوج بنتو كان جشعاً، فإنه رفض بيع المشروبات الكحولية في حانوته مراعاةً للشرع الإسلامي، وهكذا وقف عليٌ عند مدخل الحانوت ماصاً زجاجة عصير الفاكهة أو الصودا ومغازلاً المرأة الشابة بين الفينة والأخرى.

برغم أن الزوج لم يكن مسروراً بمثل هذه المشاهد المتكررة كثيراً، لكنه امتنع عن إبداء أي اعتراض. على العكس، ففكرة أن زوجته الجديدة أسالت لعاب رجال الحي مثل البلهاء وأثارت تنهداتهم وأشواقهم كانت أشعرته بزهوٍ أعظم. فبنتو - كما حسب الأمر - ملك يمينه هو في نهاية المطاف. هو من يمعك وينتهب جسدها الطري، وهو الأدرد اللعين الذي تنعّم بنهديها النضرين وردفيها

الرخاميين. وهكذا فماذا إذا مدّ أبناء قبائل منده وكريّو وتيميني وليمبا ألسنتهم كالكلاب وتسكعوا حول حانوته؟ فلتُثر تعليقاتهم الخليعة وأحلام يقظتهم المستحيلة عواطف نبتو...

عليّ، من جانبه لم يستطع تخيل قوة، سواءٌ أكانت قانوناً أو شخصاً، إلهاً أو الغابة، تُسوّغ تملّك الفولي الأشيب لهذه الصبية. وبعد مراقبة هذين الزوجين غير المتكافئين توصّل إلى النتيجة التي تقول بأن "ألذّ ثمار المانغو تأكلها غالباً القرود الهرمة الأكثر سقماً". وهكذا حاول عليّ، مستنداً على القانون الإنساني، تصحيح تلك المظالم التي رآها غير مقبولة.

تفجّر العالم الداخلي لهذا الشاب المسكين. أحسَّ بقشعريرة تدب في ظهره كلما فكّرَ بانتزاع بنتو من هذا المغتصب الخرف. طبقاً لتفكيره، فإن من واجب كل شاب اختطاف الصبايا المحبطات ذوات النهود الصلبة من هيمنة الرجال المهترئين ومنحهن متعة حقيقية وفتح البوابات أمام فيض القدرات لالتهام الحب. هكذا اعتزم عليٌّ تحرير بنتو من طاغيتها النهم، واعتبر قراره هذا أمراً يباركه الله.

سما الشباب والحب على الإقطاع الذي يجيز امتلاك الروح. ثمَّنَ عليٌّ الآن المعنى الكامل لكلمات رب عمله: "ابتدع الأحبار اليهود القدماء الوصايا العشر فقط من أجل استخدامها كدرعٍ يحمي قطيع غنمهم وزوجاتهم الشابات".

بالنسبة لزوج بنتو، هو ليس بحاجة لصعود (جبل سيناء) ما دام في متناوله الساحر الكلي القدرة - جوجو. فكل من يتجرأ على

تلويث شرفه سيُمنى بلعنة ماحقة لمئات السنين. تسبّب إنسان الغابة جوجو بأذى فاق ما استطاعت فعله قوة بوليس كاملة.

عانى عليٌّ عذابات جهنمية... في الفترة الأولى تبع الفولي زوجته وحرسها كالكلب. لكن بعد حوالي ستة أشهر خفّت الرقابة. كان كما لو أن الرجل تخلص من أسر جاذبية بنتو الابتدائية. هكذا اتخذت الطبيعة سبيلها لموازنة جشع هذا الرجل العجوز.

عرف عليّ، بوصفه مسلماً قروياً، التغيرات السيكولوجية والفيزيولوجية التي تطرأ على الأزواج مع مضي الزمن. ولبث منتظراً بروز هذه التغيرات مدة ستة أشهر. في المرة الأولى انتهز فرصة وجود بنتو وحيدة في الدكان...

لمس أولاً نهديها، ثم تشبث بهما بنهم. استجابت له بنتو فوراً واستسلمت لنشوة غامرة، وكما لو أن عاصفة اصطخبت بين ساقيها. كان جلياً أن زوجها الكبير السن لم يستطع أبداً إثارة مثل هذه الأحاسيس من النشوة في داخلها. بدا كما لو أن بنتو قد اكتشفت من خلال لمسات علي كيانها الأنثوي للمرة الأولى... رغبت أن تمدّ في عمر لحظات الاهتياج السعيدة تلك، أن تُحس بعمق أكبر، أن تعيش...

بدأت لقاءاتهما في شقته المؤلفة من غرفة نوم فقط. كان المكان خالياً، لكن مؤثثاً جيداً طبقاً للمعايير المحلية. وكانت بنتو مثل عروس في شهر عسلها. في المرة الأولى قادها سراً إلى بيته. كان عليّ مضطرباً لدرجة أنه وجد صعوبة في إدخال المفتاح في

الثقب. لا داعي لإقلاق أنفسنا لمعرفة ما حصل بين تلك الجدران الأربعة. يكفي أن تقول أن علياً لاحقاً - وهو يصارع من أجل حياته الغالية - أحس برعشة تسري في حناياه كلما تذكر تلك السويعات الهانئة.

انتهى كل شيء بسرعة.

عندما يقيم رجلٌ محليٌ هنا علاقة مع زوجة فوليٍ شابة يصير حتى للجدران لسانٌ وتستشعرُ الغيرة.

في الأزمنة الماضية كان الفولي يغسل عاره بالدم. لكن إن اتبع كل ديوثٍ هذا السبيل سيمكث نصف السكان من الرجال في السجن والنصف الآخر في القبر.

بدلاً من ذلك تلقت بنتو ضرباً رهيباً. وبينما تجمَّع حشدٌ لرؤية المشهد الموجع للقلب حذّر الفولي كل عليٍّ حاضراً ومستقبلاً على السواء بأنه، وبعون اللّه، سيرجو ساحر قبيلته الأعظم شهرة - جوجو لإطلاق شواظٍ من نار على رأس كل امرئ يتجرأ على اشتهاء زوجته وتلويث سمعته. وفي حالة عليٍّ نفّذ ابن الكلب وعيده. وانتظر الشاب المسكين بهدوء رجل ممتثلٍ لعقوبة موته حدوث ما هو أسوأ. وصلت الأخبار إلى كل مكان.

اكتسب الفولي الديوث في أعين رجال الجوار قدرات بشرية خارقة. احتشدت مجموعات منهم قدمتْ من أمكنة بعيدة للنظر إلى هذا الفولي الفظيع مباشرة.

* * *

أخفى الشباب، موظفو الشركة كل هذا حتى اليوم الذي جاؤوا فيه إلى الإدارة بغرض جمع التبرعات. حتى تلك اللحظة كانت القصة الرسمية هي أن عليّاً يستريح بعيداً في عمق البلاد ويتعالج في ظل عناية طبيب محلي. تبعاً لذلك حُوِّل إليه رابته الشهري في حينه دوماً.

كما عرفنا، لم تكن ثمة حاجة لجمع تبرعات لولا الدراما الفعلية التي كانت تدور في الذهنية الظلامية للشباب والتي لم نكن على دراية بها. فدخل إلى الإدارة أنشط هؤلاء الشباب ماسكاً بيده رزمة من الجنيهات الورقية.

سألت الشاب: - أية تبرعات؟ من أجل ماذا؟ ألا نأخذ على عاتقنا كل التكاليف الطبية الخاصة بعليّ؟

- نحن نعرف ذلك، لكن هذه نفقات طارئة غير متوقعة - أوضح الشاب.

- وهل من غير الجائز لنا معرفة أسباب هذه النفقات الطارئة؟

- لا يجدر بالشخص الأبيض معرفة مثل هذه الأشياء، هذا أمر يخص الشخص الأسود...

- تقصد عمل جوجو - قلت له.

- حتى لو عَرَفتَ فلن تقتنع بقوة جوجو، لذا أخفينا ذلك عنكم.

- إذن انسَ ذلك - قلت له.

ـ لا، أرجوك، لم نجمع سوى نصف المبلغ المطلوب - قال متضرعاً. لكنه، إذ قرأ الامتعاض على وجهي، نظر فيما حوله بأسى، ثم اعترف بما يشبه الهمس:

- نحن ذاهبون لدفع المبلغ للرجل الفوليّ.

- لكن لماذا؟ وهل عليٌ مدين له بمال - سألتُه متعجباً.

* * *

وصلنا نبأ تدهور صحة عليٍّ، والفشل الصريح للطب المحلي في إنقاذه من براثن الموت. أرسلنا سيارة لإحضاره إلى المدينة. رفض عليٌ إطلاقاً أن تطأ قدمه شقته القديمة. انكمش ذعراً من احتمال أن يلتقي وجهاً لوجه بجلاّده.

لكنه مازال في توق شديد لرؤية بنتو مرة أخيرة قبل موته، لتقبيل شفتيها وليقول لها كم كانت جميلة.

شيء عظيم أن تُولَّه بجمال امرأة، أن تعيش وتتنفس من أجلها. لكن أن تموت من أجلها فذلك أمر آخر... بدا في عيني عليّ سناء لا حدود له.

كنتُ في حالة صدمة عندما رأيتُ كتلة من عظام متغضّنة كانت كل ما بقى من عليّ المتين المعضّل. أية مهزلة ظالمة وشائنة للطبيعة!

استلقى في فناء كوخ الصفيح. مدّ ذراعه إذ عرفني. أخذتُها بيديّ الاثنتين. رجاني أن أدفع للفوليّ المبلغ المتفق عليه. ذهب العمال زملاء عليّ إلى ذلك الرجعي العجوز، جثوا عند قدميه

متوسلين أن يصفح عن صديقهم المسكين، أن ينقذه من أصفاد جوجو، من براثن الموت...

اشتم الفولي، كأي تاجر شاطر، إمكانية عقد صفقة رابحة بسرعة. وكان، بصرف النظر عن حدسه بكسب غير متوقع، يستشعر الرضا بهزيمته غريماً له، ناهيك عن المقام الجديد الذي تبوأه في أعين المحيط المجاور.

استمر عليٌّ متوسلاً بصوت واهنٍ بالكاد مسموع:

ـ أرجوك أن تدفع للفولي ما يطلب... لا أريد أن أموت.

ـ يا عليّ، قلت له: إذا كنت تريد أن تعيش، فيجب ألا نعطي بنساً واحداً لابن الكلب ذاك.

لم آخذ شيئاً من هذا الموضوع بِخفة. فحياة الرجل في الميزان، هو معلقٌ بين الحياة والموت.

ـ سننقذ حياتك مهما كلف الأمر. يلزمك فقط أن تقلع عن التفكير بعمل هذا الجوجو. لا يمتلك الفولي أي سلطةٍ عليك. هذا كله هراء. مرضك يا علي في ذهنك فقط، هل تفهمً؟ حبك لبنتو لا علاقة له بهذا المرض.

بعدئذٍ، وتأكيداً على فكرتي أضفت:

ـ لو أن الموت هو ما يحدث عندما تحب زوجات آخرين لغدت هذه المدينة مدينة أشباح الآن.

...على وجه الشاب ارتسمت ابتسامة واضحة.

# الحب الأبيض والفتاة السوداء

## A Black Girl,s White Love

في هذه اللحظة يغمرني شعور عجيب يجب أن أتغلب عليه كي تُتاح لي فرصة سرد القصة التي سأرويها لكم قبل أن يطمرها غبار النسيان وتلاقي المصير ذاته الذي لاقته تجارب كثيرة عشتها.

بطلتي ابنة رجل أسود متنفذ وحاصل على تعليم عالٍ. كان عمرها في حوالي العشرين. وبرغم أنه من الصعوبة بمكان وصف جمال امرأة نظرتَ إليها بعيني الروح واعتبرتَها لا أقل من إلهة، لكن تجدر المحاولة.

سأختار طريقة تصوير واضحة وعملية. تخيلْ إذن فينوس. غط جسدها بمادةٍ رقيقة لاصقة مع التأكد من أنك غطيت كل بوصَة، ثم رُشَّها برفق بقهوة مطحونة. مع ذلك قد لا تستطيع إظهار (مكالي) تماماً من خلال الأنف والثغر الرقيقين اللذيذين والقوام الفينوسي والبشرة المخملية الناعمة فقط. فكانت حركاتها رقص باليه وكلماتها أغنية وموسيقا... كانت المرح والرقة والأنوثة الكاملة.

حصل أن ألقى بي القدر على هذه الشواطئ. وجدت نفسي ضعيفاً ووحيداً، مثل بحارٍ غرقت سفينته، في إفريقيا، في البلاد نفسها التي طافت فيها مكالي.

التقيتها في نادي الغولف. كانت في إجازة من دراستها في باريس. تكلمت الفرنسية بطلاقة، كما لو كانت لغتها الأم. كانت حرة التفكير، جريئة وتصرفت مثل أية أوربية عصرية متحررة. حدث أيضاً أن كانت ضيفي على العشاء في منزلي، قبل عودتها إلى باريس، برفقة والديها ومع مجموعة من الأصدقاء الأوروبيين.

في تلك الليلة شهدتُ ظاهرة غريبة. عيون معظم الرجال البيض كانت مثبتةً عليها بشكل لافت. كانت بؤرة الانتباه دون منافس، في حين كان يحصل عادة العكس تماماً، إذ الأوروبيات وجمال الشقراوات هو مايجذب اهتمام الرجال حصراً. انقلبت الأدوار بشكل معكوس. كانت (مكالي) مدركةً تماماً لقوة جاذبيتها. فخلال الأمسية اتخذت وضعية جديرة بأميرة، كما لو كانت تثأر من التعصب الأعمى المستمر المتراكم عبر الزمن ضد لونها وعرقها. هكذا اختلطت الأمور وانهار المناخ الودّي الاجتماعي المألوف في ذلك المساء، في حين كان والداها يراقبان برضا هذا الاختلال أو التفكك الذي أحدثته ابنتهما.

أنا لم أكن مسؤولاً عن أية مظالم ارتكبت ضد الأفارقة السود. على العكس أحببتُ غاباتهم العذراء وشواطئهم الرملية، وأحببت الشعب، شاركت الناس آمالهم واختلط عرقي بعرقهم. أحببتهم من خلال معاناتهم وضعفهم. كنت مستعداً للركوع على ركبتيّ أمام مكالي في محاولة التخفيف من همومها وهموم

شعبها. في تلك الليلة لم يُتح لي الضيوف من الرجال البيض الشهوانيين ولو شبه فرصة كي أبوح لها ما بقلبي. لكني تدبّرت أمر الاعتراف لها بحبي همساً في أذنيها.

كنت مغموراً بالعاطفة. عرفتُ، للمرة الأولى في حياتي، معنى ذلك الشعور، لم يكن مشابهاً لما عانيته في تجاربي مع النساء البيض. كانت تلك التجارب القديمة مثل الذرات في ضباب بعيد أكاد أستطيع تذكرها. احتجت إلى قتل التردد. كنت مدركاً للصعوبات، أو قُلْ للاستحالة، بخصوص هذا الحب الغريب. مع ذلك سمحت لنفسي بالمعاناة سراً، استسلمتُ لنوعٍ من القدرية. أليس صحيحاً أنّه في داخل كل عاشق حقيقي مازوشية ما؟

كان كل ذلك وهماً. عادت مكالي إلى الوطن بعد إتمام دراستها في باريس. بدت الآن أكثر جمالاً، أكثر نضجاً وأكثر إثارة من ذي قبل. أما أنا فكنت مستفذاً جسداً وروحاً. بعد خيبات كثيرة مع نساء أخريات وعدتُ نفسي ألا أغرقَ في حب جديد، واقتنعت بأني قادر على إخراس الدافع الداخلي نشداناً للسلامة.

بالكاد شفي الجرح القديم داخل الحيز الكبير المتقيح في داخلي. لكن هاهو ذا آخر أكثر إيلاماً وأكثر عمقاً.

نادراً ما يكون الدافع الجنسي المتفجر مؤشراً على حب كبير. وفي علاقتي بمكالي كانت غرفة النوم عنصراً ثانوياً، في حين كنت مع النساء السود الأخريات معنياً في الغالب، وبالدرجة الأولى، بمتع الجسد، ولم يكن حتى من ذكر في الحقيقة للروحي والسامي.

قبلتْ مكالي دعواتي. قضينا أوقاتاً على طول الشواطئ الخالية المغمورة بالشمس الوفيرة بغزارة في هذه البلاد. سكرنا بالشمس والماء والرمل وسوى ذلك. قمنا بنزهات على طول الشريط الساحلي، بينما عمدتُ غالباً بهزل وخبث إلى التباطؤ والتخلف قليلاً من أجل أخذ نظرة كاملة لإيقاعات قوامها الرائع ومشيتها الراقصة.

لكن، على الرغم من هذا الجو الرومانتيكي الرحب والمترف، تحاشت مكالي أن تُشاهد وهي معي وسط الناس. كان ذلك لغزاً تاماً بالنسبة لي. نحن المنافقون البيض من نتجنب عادة الظهور مع الفتاة السوداء. فيحاذر أي شاب أبيض يحترم نفسه الظهور مع صديقته السوداء في مطعم أو صالة رقص أو مسرح. وإن حصل وخرقنا هذه القاعدة المتعارف عليها وَسَمَنا مجتمع البيض بميسم العار بكل تأكيد. أصدقاؤك، كما مدير البنك على السواء، سيشيحون بوجوههم عنك مرغمين إياك على دفع ثمن حماقتك غالياً. كان المستعمرون من خلق هذا المعيار المزدوج الذي ورثناه، علماً أنهم أكثر من غيرهم استسلموا لدفء أجساد النساء السود.

لا أرى مبرراً لمكالي، وهي المرأة التقدمية ذات التحصيل العلمي الأوروبي، لأن تنكمش خجلاً إن رآها الناس بصحبتي. فكر أصدقائي أنّي تغيّرت. فسلوكها ضايقني فعلاً. أخذتُ رفضها الخروج معي بحرية على محمل الجد، إذ أصبح الأمر

متعلقاً بكرامتي الشخصية. دخلنا في جدالات حامية حول هذه القضية، لكنها بقيت مصرة على موقفها بعناد.

- استنطقتُها قائلاً:

- هل من أحد ما آخر في حياتك؟ شخصية حكومية مهمة ربما؟

- لا هذا ولا ذاك - قالت.

- إذن أنت تخجلين من الظهور بصحبة رجل أبيض.

- افهمها كَما تشاء، لكن الأمر غير ذلك - قالت محتدة - أنا أعرف ما أعرف وهذا يتعدى فهم أي شخص أبيض.

حاولتُ متابعة الأمر من زاوية أخرى: - أرى أنه يحسن بجيلنا أن يسموَ فوق تلك القيود الموروثة من الأزمنة الاستعمارية، ثم تابعت:

- لا يجدر بفتاة مثلك متعلمة في قلب أوروبا ومتنوّرة أن تسقط في مستنقع العنصرية البائد. أعني أن والديك يتبنيان بشكل تام تقريباً الأعراف والأخلاق الأوروبية، أليسا كذلك؟ وفي الوقت ذاته هما فخوران بأنهما من أبناء قبيلة "كريّو".

بدا الزيف بعيداً عن أفكارها عندما افترت شفتاها كاشفة عن أسنان قوية بيضاء كاللؤلؤ. برزت على وجهها البيضاوي الأسود الآن ابتسامة بهيجة وتلألأت عيناها:

- هل فكرت في حينٍ ما باستحالة الزواج من فتاة سوداء؟ - سألتْ

- ماذا تعنين بكلمة "استحالة"...

- سمعَتني تماماً - قالت، ثم أضافت: الاستحالة البسيطة. تخيَّلْ حرفياً رفضي لرجل أبيض طلب يدي. افترضْ مرة واحدة أن تكون الفتاة السوداء هي من رفض.أعرف أن هذه الكلمة كانت مثمّنة من قبل البيض، لكن سايرْني من فضلك هذه المرة فقط. وأنا أرى أنك تحتفظ بهذه المحاضرة الغبية عن العنصرية من أجل فتيات سود أخريات.

في تلك الأيام وجدتُ كلمات مكالي مبهمة ومذهلة. فلم أفكر بالزواج أو أحسب له حساباً برغم القدرة على الحب بعمق. الزواج، في أحسن الأحوال، خط نهاية غامض مغلّف بضباب بعيد ومثير للتوجس إلى ما لا نهاية.

صدمني موقف مكالي المبهم إلى أن جاء يوم ابتُلي فيه صديق إنكليزي لي ودعاها للخروج معه. حصلتْ هذه الواقعة في نادي الغولف عندما كانت جماعة من أعضاء النادي تشرب الجعة بعد عدة جولات لعب. كانت دعوته، بدايةً، عادية ولم يكن متوقعاً أن تُثير مشكلة. كان الشاب جديداً ودعا مكالي بعفوية لتناول الغذاء معه. لكنه ووجه برفضٍ فظ. كرّر الدعوة مرة ثانية، ثم ألحّ من جديد.

كان والد مكالي، على ما يبدو، يراقب المشهد من بُعد، ولم يستسغْ اللهجة الوقحة للشاب الإنكليزي. بدا له الأمر وكأنّ واحداً من أبناء الأمة المسيطرة يدّعي التصدّق على ابنته، إذ يمنحها - أو قل يفرض عليها - دعوته. اندفع والدها، مدير النادي - وكان رجلاً كبير السن - كالعاصفة باتجاه طاولة

الشاب وأمره بالانصراف. تفجّر الانفعال وتلاه شجار انتهى إلى ما هو أسوأ، إذ صفع والد مكالي الشاب على وجهه، ثم أتبعها بخطبة أمام المجموعة عكست مكنونات نفسه:

- إنْ كنتم تفكرون أننا يجب أن نرقص أمامكم مثل القردة الجوعى من أجل أن تلقوا لنا قطعة موز، فإنكم مخطئون جداً أيها السادة.

كان يهدر بأعلى صوته. بعدئذ التفت إلى صاحب الدعوة الوقح وأضاف:

- جلدك الأبيض لا يعطيك الحق بأن تنتر ابنتي إلى حيث تشاء ضد رغبتها يا سيد.

نظراً للوضع المتفجر في البلاد انسحب الإنكليز بهدوء دافنين الحادثة في مكانها. لكن بقي رد فعل والد مكالي غير مفهوم من قبل بعض الحضور. فكان على مسافة من أفراد قبيلته، عمل بجد وجهد وتغلّب على عقبات لا تحصى على مدى سنين من أجل أن يصل إلى ما هو عليه الآن. والآن غامر، مع مشهد الصفعة هذا، بإضاعة كل ما حققه في حياته. لماذا هذا الكره المفاجئ للبيض من قبل شخص زوَّج اثنتين من بناته للإنكليز؟ هل يمكن أن تنسف خطوة خاطئة واحدة روابط الدم التي كوّنها مع البيض؟ لقد بدا مبتهجاً فخوراً لدى دخوله النادي ماسكاً بأيدي أسباطه من ذوي البشرة الفاتحة. لو لم يتعلق الأمر بهذه العوامل لكان من الصعب إقناع الإنكليز باختياره رئيساً لناديهم المحبوب.

أحياناً تلقي حادثة عرضية، أو مجرد كلمة الضوء على سلسلة حوادث كانت غامضة. بعد هذا الشجار الصغير في النادي فترتْ علاقتي بمكالي وكما لو أننا افترقنا.

بقلب مكسور وغيرة شهدتُ مواعيدها الليلية مع رجال سود مختلفين. أقامت علاقات صداقة عابرة مع أشخاص غير جديرين. هل كان ذلك من قبيل تزجية الوقت وتبديد الملل؟ هل كانت تهرب من واقعها؟ تتخفف من همومها؟ أم تقوم ببساطة بتجارب جنسية؟ بعد حادثة النادي لم يجرؤ أي رجل أبيض على التعلّل بأية أوهام بخصوصها.

اقترحتْ عليَّ بعد حين في سياق اتصال هاتفي جرى بيننا قائلة:

- دعنا نضع نهاية للقاءاتنا. لا أُريد أن يحصل لك ما حصل لذاك الإنكليزي المسكين. ثم أضافت كما لو كانت تفشي سراً: - واضحٌ تماماً أنّه فزع أن ينتهي بي الأمر مع رجل أبيض كما حصل لأختّي. لا بأس، وإن كانت أحاسيسي أوروبية دون ريب.

- إذن يجب أن تصغي لنداء قلبك - قلت لها، فأجابتني متنهدة:

- لو كان ذلك سهلاً. والدي رجل نبيل وحساس. ليس عنصرياً على الإطلاق. لكنني لا أقوى على المضي ضد رغبته. إنه يعاني منذ زمن طويل.

بدا واضحاً أن تلبية رغبات والدها يعني ارتباطها بشريك حياة أسود. التقيتهما مصادفة في نوادٍ ليلية مختلفة. كانا

يبدوان معاً في حالة من الافتتان الجنسي، ورقصا بتهتك صارخ. في هذا الحمى الإفريقي من الحرية الجنسية يستطيع الزوجان العيش معاً سنوات دونما عائق من جانب المجتمع. وفي الواقع يُبدي الأطفال الأفارقة رغبة فريدة في "حمل شموع" في أعراس والديهم. لكن مكالي فضّلت عقد رباط زواج رسمي مع أدونيسها.

ذات مرة، بينما كانت تبحث عن شراء سيارة، قامت بزيارة مفاجئة لنا. لم يغيّرها الزواج. فهذه هي نكاتها المثيرة على النمط الفرنسي وتعليقاتها اللاذعة غير المحتشمة المعهودة. أحياناً بعد أن يتلاشى الحب والشوق لدى العشاق القدامى أحدهم تجاه الآخر تتحول العلاقة بينهما إلى رباطٍ إنساني لطيف يمكن أن يستمر متيناً ودافئاً فترة طويلة من الزمن، وحتى ربما مدى الحياة.

عندما تلاقت نظراتنا من خلف قدحي الجعة أدركتُ أنه ما زال ثمة بقية من علاقة ودٍ واهتمامٍ مشتركة بيننا، وإن على مستوى مختلف الآن. أعطانيَ هذا الإدراك دفعاً لمحاولة كشف الأسباب الكامنة خلف السلوك الغريب لهذه المرأة، والأهم من ذلك، لوالدها - الرجل الذي كان صديقاً حقيقياً للإنكليز، والذي تكلّم اللغة اليونانية القديمة كما لغته الأم. رأيتُ أنّ وفاته، التي لم يمض عليها سوى زمنٍ يسير، قد ساعدتها على نقض العهد الذي قطعتْه على نفسها بالتزام الصمت. وهكذا قالت لي بعد برهة تردّد طويلة:

- حقيقة الأمر أنّ والدي لم يُفهم كما يجب. شخص أسود قضى شطراً لا بأس به من حياته في صلب مراكز الحضارة الغربية، وقرأ هوميروس باللغة اليونانية القديمة التي كتب بها لا يمكنه أن يكون إلا ولوعاً بثقافة البيض. على الأقل لا يمكنه أن يكره البيض، هل يمكنه؟

- لم أستطع الجلوس هادئاً، فقد اتخذ الحديث منحى مثيراً. وها هو الغطاء يُرفَعُ أخيراً عن القصة الحقيقية.

تابعت المرأة قائلةً:

- والدي - بارك الله روحه - سُفّه... سُفّه ورُفِضَ بسبب مواقفه الكوسموبوليتية. بعد الاستقلال مالت أوساطَ النخبة في قبيلة "كريّو" إلى التعصب العرقي والشوفينية تجاوباً مع اتجاه التيار الراهن. صار كل أولئك المتملقون الذين بقوا حتى الأمس يلعقون أحذية الإنكليز من أجل الحصول على عمل - صاروا الآن وطنيين غيورين شديدي الحماسة، ووجهوا سهامهم المسمومة ضد الأشخاص الحساسين الذين تشبعوا بالمثل العليا الكونية أمثال والدي. إنهم الجبناء ذاتهم الذين التحقوا بصفوف الأحزاب السياسية وضمنوا لأنفسهم مناصب رفيعة في الحكومة. ثم راحوا يعبثون بمستقبل الأمة. إنه السلوك الانتهازي الطبيعي، برأيي، من أجل الوصول السريع. كان لوالدي فهم آخر مختلف بخصوص المشاكل التي تواجه أفريقيا السوداء. كان مقتنعاً أنه لا يمكن بناء أمة على أساس من الحقد. أراد، فضلاً عن ذلك، أن يبرهن للعالم أنه بإمكان

أفريقيا السوداء أيضاً، في ظل ظروف وفرص مناسبة، دراسة هوميروس وترجمة شكسبير والإسهام في الثقافة العالمية. لقد نال الاحترام حيثما ذهب ولم يدافع دون وجه حق عن الطبقات الحاكمة. كان بإمكانه، في الحقيقة، تعليم الإنكليز اللغة الإنكليزية.

إليكَ أمراً آخر لم أخبرك به قبلاً: أثناء دراستي في باريس وقعتُ في حب شاب فرنسي اسمه جان - كلود. طلب يدي للزواج ورغبت من أعماق قلبي أن يكون شريك حياتي، لكني رفضت عرضه. أنا، حتى هذا اليوم، لا أستطيع التعامل مع أسلوب الرجل الأسود في ممارسة الحب. أنتم الرجال البيض نجحتم تماماً، وحوّلتموها إلى عملية فنية. أنتم البيض تفعلونها بلطف وبراعة، بإحساس وتفانٍ. بعض شبابنا، على العكس من ذلك، يتصرفون كالبدائيين... هم أنانيون في الفراش... يهتمون بمتعتهم الخاصة فقط، وَيَدَعون المرأة باردة.

برغم كل ذلك تزوجتُ زوجي الأسود من أجل أبي. ربما تقول في نفسك الآن: "وهل ما يزال ثمة فتيات يضحين بأنفسهن كرمى آبائهن؟". لقد عاش أبي مأساة حقيقية في السنوات الأخيرة من حياته، وهذا أمر لم يلاحظه أحد. سافر غالباً إلى إنكلترا لرؤية ابنتيه وأسباطه، وهم قضوا عطلهم الصيفية في العادة هنا على الشواطئ المشمسة. أحب أبي أسباطه الخلاسيين، مثله مثل أي جد آخر. لكنه كان يتسمّر في مكانه أحياناً بشكل مفاجئ وهو يحملُ هؤلاء الصغار. كان يثبت نظره في

نقطة بعيدة دون حراك شارد الذهن لبرهات دون انقطاع. نحن ثلاث أخوات. لم يكن لنا أخ. وكنت، بالنسبة لوالدي، رابطه الوحيد بهويته. بدت تلك الاتهامات الموجهة له من الصديق والعدو على السواء ثقيلة أكثر فأكثر عليه. لم يُمح ذلك التصنيف البغيض "عاشق البيض"، تلك الوصمة عن جبهته أبداً.

كما ترى، الإنكليز فعلوا أكثر من أخذهم ابنتيه بعيداً عنه... جرّدوه أيضاً من اعتداده بنفسه كشخص أسود. لم يكن من فائدة لسعيه كي يوضح لأبناء قبيلته أنه لم يكن له دور أو خيار في تزويج ابنتيه. هو، في الحقيقة، لم يمانع أيضاً. ترك لأختّي حرية اختيار شريكي الحياة.

هكذا بقيت أنا بشكل طبيعي أمله الأخير. كان سبيله الوحيد للتخلص من الوصمة هو زواجي من أحد أبناء قبيلتي. ولم ألمه. تاق كثيراً كي يحيط نفسه بأصهار وأسباط سود. من جانب آخر لا يستطيع الإنكليز، مهما حاولوا، التخلي عن عجرفتهم، أو أن يكونوا مباشرين عفويين مثل السود.

لم أقو على المضي ضد رغبة أبي. عثرت على رجلٍ مقبول وتزوجنا. قررت، منذ أول ليلة لنا معاً، ألا أستخدم موانع حمل. كنت متلهفة جداً لإنجاب طفل أسود إلى هذا العالم من أجل أبي. فقد عاش منتظراً ذلك.

لكن القدر خبأ لنا شيئاً آخر. بدا وكأن الرجل المسكين سيغادرنا دون أن يتحقق حلمه. أُصيب بنوبة قلبية، ثم ثانية. لم يحدث شيءٌ بخصوص آمالي بالحمل سريعاً. ركضنا من عيادة إلى أُخرى.

أُصيب أبي بنوبة ثالثة. رقد في شبه غيبوبة في سريره في المستشفى. لم يلاحظ قدومنا. بدا رأسه، وسط كومة من الأغطية البيضاء، مثل الكرة السوداء. اقتربتُ منه ولمست رأسه برفق. كانت جبهته باردة. لم أستطع حبس دموعي. لم يكن موته الوشيك هو ما أبكاني.. بل حقيقة أنه سيغادر هذه الدنيا دون أن يحمل سبطه الأسود في حضنه.

غداً كم من الناس سيمشي خلف نعشه؟ وكم من الناس لن يسامحه حتى وهو جثة هامدة؟ جعلتني هذه الأفكار البائسة، أهزّ رأسه قائلةً: "أبي افتح عينيك من فضلك. انظر إليّ. أنا أتوقع...". كنتُ مرتديةً واحدةً من بلوزات الحوامل. مرة ثانية رجوته أن يفتح عينيه. ومن جديد. ومن جديد. وبما يشبه المعجزة فتحهما. رفع ذراعيه ببطء، ثم مدّهما نحوي كما لو أنه أراد لمس بطني، لمس سبطه. لكن يديه توقفتا في منتصف الطريق، انتصبتا معلقتين في الهواء. غاصت رأسه هامدةً في الوسادة. لكن بقي على وجهه ظل ابتسامة صغيرة...

# تشيكو

**Cheeko**

قبع على الرصيف الضيّق لهذه المدينة الاستوائية المتواضعة قرد. سلبوه دوره التمثيلي للإنسان وعرضوه للبيع نظراً لمذاق لحمه الطيّب. جلس هذا الحيوان اللطيف المشدود بحبل خشنٍ في عنقه هنا منتظراً حدوث شيء ما، في حين دلّت نظرته على الرعب الذي يواجه كل بني جلدته. كان مأزقهم جزءاً، حزمة من المأساة التي يواجهها الكون كله... المجزرة واحدة، سواءٌ حدثت بانفجار قنبلة نووية، أو بمعدة تاجر ثري نهم... فلا فرق كبيراً، أياً كان الشكل الذي تمظهر به التهديد.

عابراً الشارع توقفتُ لحظةً في تردد لإلقاء نظرة على القرد... مع حلول الماء سيُشوى هذا الحيوان الصغير ليقدَّمَ على مائدة عشاء أسرة محلية، أو سيغدو سجين قفص معدني عند أحد الأوروبيين. لكني - أنا البقية الباقية من شعب مضطهَّد - اشتريت القرد بخمسة ليونات (نصف جنيه استرليني). نعم، اشتريت (تشيكو) بخمسة ليونات بنية لإطلاقِ سراحه وتحريره

في غضون أسبوع. فأنا بذلك أُحرر نفسي من إثم جلاّد يحتجز حياة أسير.

توقف تشيكو قبل أن يبدأ خطواته الأولى نحو الحرية مستغرباً إن كان ما عُرض عليه مجرد طول حبل، نوعاً من خداعٍ أو وهم قاس. لكنه سرعان ما أطلق صرخة فرح مع شقلبة معبراً عن امتنانه وثقته بنفسه. سوف أعيش وإياه في غرفة واحدة.

لاحقاً غاب تشيكو عن بيتي وعن المحيط المجاور أياماً. أحسست بفراغ غريب في البيت وانتظرت بقلق عودته. وفي عدة مناسبات استسلمت حتى لفكرة فقدانه إلى الأبد.

ومع أن انتقال تشيكو إلى حياة الحرية قد أزعجني لكني حاولت فهمه وإدراك توقه للانعتاق. قلت لنفسي هذا حق مقدس لا يجدر أن أنتهكه مهما كلفني ذلك.

في الحقيقة ما كان ممكناً ألاَّ يلاحظ هذا المخلوق تشيكو بحدسه الاحترام الذي أُكنّه لحقوق وحرية الأشخاص والحيوانات على السواء. خلال هذه الفترة المنقضية ازداد تعلق أحدنا بالآخر. وكنت في بحث دائب عن معنى ذلك على عدة مستويات. فما قصَّر فيه الناس، أوَ تركوا فيه ثغرة عوّضه وملأه هذا المخلوق ساكن الغابة. بدا لي أنه هو أيضاً مدرك لمدى أهميته عندي. ازداد وزنه وبدا ممتلئ الجسم. تخلّص قبلاً من نظرة الحزن الخاصة باليتيم. وحدث أحياناً، مدفوعاً بغرائزه، أن غار على مائدة الفطور واختطف قطعة زبدة كاملة واختبأ خلف دغلٍ من الأشجار.

كان البيت الذي سكنت فيه مع تشيكو محاطاً بنباتات نامية على سفح مؤدٍ إلى رابية مجاورة. وذات مرة اندفع جماعة من قبيلة تشيكو، بضع عشرات منهم، عبر هذه البقعة الخضراء لتثبَ مرحة حول الأشجار. في تلك الأيام كان باستطاعة المرء ملاحظة انبعاث غريزة تشيكو الدفينة المنسية منذ زمن طويل.

كان يثب جذلاً، بخفة تُذكّر بالطفولة،على الأغصان التي ألفها، مطلقاً صرخات انتشاء من عاد إلى بيته الأصلي ومستسلماً لسعار عاطفة سن البلوغ.

بعد ذلك غادر القطيع وتبعه تشيكو. الآن وقد اعتقدت أنه غادر إلى الأبد سلّمت بهذا الواقع آخذاً بالحسبان أنّه عاجلاً أم آجلاً سيتركني. لكني كنت أحس بالضياع كلما فكرت باحتمالية العيش بدونه، والآن بدأتُ أشك في جدية رغبتي رؤية تشيكو حراً.

كان متمتعاً بالحرية التي يريدها شريطة أن يعود مساءً قبل حلول الظلام إلى هذا الجانب من التخم المتفق عليه بيننا. لكن أن يغادر إلى الأبد إلى الغابات القصيّة تاركاً إياي أنا المغترب في وحشة مخيفة، فهذا ما لم أستطع غفرانه له. أنا لم أوذِ شعرة في جسمه أبداً، أطعمته أفضل الفاكهة والزبدة والعسل، وكنتُ حتى مستعداً لجلب رفيقة له تساعده في تزجية الوقت.

لكن تشيكو الخبيث، مثله مثل أي ولد متمرد، لم تبدُ لديه نية بالموافقة على عروس يختارها له "والده". ربما أراد هو أيضاً أن يعثر على شريكة حياته في ظل ظروفٍ عادية. مضت أيام

ولم يعد إلى البيت. أخيراً فكرتُ أنه يجب أن يكون قد عثر على رفيقة روحه. من يعرف أية شجرةٍ اتخذها الآن بيتاً له مستخدماً أغصانها المبرعمة مسرح لهو ومستسلماً للذائذ شهر العسل التي لا ينضب معينها؟

في تلك الأثناء كنت غارقاً في لجة من ملل. عاهدتُ نفسي صادقاً ألاّ أتعلق بعد الآن بأحد.. خائباً وغير قادر على وضع حدٍ للإحساس بالهجر عدت إلى رتابة حياتي اليومية. صدمتني مغادرة تشيكو غير المتوقعة وأصابتني في الصميم. ولم يبق لي سوى الأمل بأن أستعيد مع مرور الزمن راحتي النفسية.

بعدئذٍ ظهر تشيكو من جديد على نحوٍ غير متوقع تماماً.

هل جرّبتَ في حياتك متعة معانقة مهاجر افتقدته طويلاً، حبيب، أو ابن عاق بعد سنوات طويلة من الفراق؟ فجأة اندفع تشيكو قادماً من الغابة، وها هو الآن هنا في حضني يحكّ أنفه الرطب ويمرّر شفتيه على وجهي.

بقفزة رشيقة اعتلى تشيكو كتفي وراح يُفلّي باهتياج خصل شعري لتنظيفها من قملٍ لم أعهده قبلاً. ربما فكّر أنّ صاحبه قد حُرم من العناية والرعاية زمناً طويلاً.

بعد عودته من الغابة أبدى تشيكو نفوراً غير اعتيادي من العنصر النسائي. إضافة إلى ذلك صار ذوقه تجاه الجنس الآخر أكثر تطوراً وحرافة على نحوٍ غير معهود سابقاً. هكذا، ففي هذا الزمن عندما تضاءل إلى حدٍ بعيد عدد الرجال الظرفاء المقدّرين للجمال، استغربتُ حال القرد وفيما إذا كان

قد مارس عملاً جعله بالمحصلة نيّقاً غير متسامح تجاه النساء. وفعلاً اتهمني أصدقائي بأني خلقتُ منه وحشاً منحرفاً.

أبدى تشيكو ازدراء صرفاً تجاه النساء الأقل جاذبية اللواتي يتردّدْنَ إلى البيت لدرجة أن الماكياج المفرط على وجوههن جعله يبتعد عنهن.

لو أنّ القدر منح تشيكو عمراً أطول لاكتسب دون شك مزيداً من الصفات الإنسانية. ولقد مرّت عليّ سويعات، عندما كنت أزهق من هجناء مزيفين حولي يدّعون بأنهم بشر، وجدتُ أثناءها في تشيكو عزائي، إذ كنت استرخي آخذاً كفه في راحة يدي ومتمعناً فيه. وجدت الكثير من التشابه بين خطوط راحة اليد والأصابع والأظافر لكلينا وحتى في تعابير وجهينا.

بدأت التعامل مع تشيكو كأخ. (بعد سنوات كثيرة، وفي ذكراه، تسلقت شجرة. كنت في نزهة وراح بعض أصدقائي الأوروبيين يتبجحون محاولين التأكيد على أصولهم الأرستقراطية النبيلة. وعندما أتى دوري تسلقت ببساطة أقرب شجرة).

نعم، لم يكن تشيكو مختلفاً عن كائن بشري، وقد عاملته على هذا الأساس. وهكذا ألم يكن متوقعاً، وقد أهنته ذات يوم، أن أدفع ثمناً باهظاً لقاء غلطتي؟ وحتى هذه اللحظة ما زلت، عندما أستذكر هذه الحادثة، تنتابني غصة ألم إحساساً بالذنب. في ذلك اليوم المشؤوم انقلبت الأدوار. تشيكو القرد تصرف مثل إنسان، في حين تصرفت أنا السكران مثل حيوان. ربطتُ، بدفع من الأصدقاء وبمساعدتهم، بالوناً بذنب تشيكو. كنا في نادٍ على

شاطئ البحر. لم يصدّق الحيوان المسكين عينيه. صاحبه المحبوب يُذلّه، يجعله أضحوكة أمام جماعة من الناس. بدا أن تشيكو لم يبتلع هذه الإهانة، لم يغفرها. حتى وإن كان ما زال يحس بأنه مدينٌ لي بإطعامه وحمايته، لكنه لم يعد في الواقع لي. بقي في الحقيقة يهرِّج مسلياً تلك الحيوانات المتمظهرة في هيئة بشرية، لكن لا أكثر. وفجأة، في جزيءٍ من ثانية، وثب تشيكو على شجرة مانغو ناوياً عدم النزول عنها. كان يُعبّر عن حس الكرامة الذي ما زال يعمر نفسه في تصرفٍ دالٍ على امتعاض، على احتجاج.

احتجنا لأربعة أشخاص حتى تمكنّا من إنزال تشيكو عن الشجرة. أنا لم أر أبداً مثل هذه المرارة الصريحة على وجهه. كفى المرء فقط أن يرى ذلك التعبير ليفهم حقارة فعلتي. كانت المسامحة بعيدة عن أفكاره. كان مفجوعاً منسحق القلب تماماً من آخر إنسان اعتبره تجسيداً للرقة والإخلاص.

اعتاد تشيكو الجلوس على سطح سيارتي - بصرف النظر عن السرعة التي أقود فيها - خافضاً وجهه اللطيف الظريف ومسنداً إياه على هيكلها اتقاءً للريح. لكن لم يكن في هذا الوقت في مزاجٍ يسمح له باتخاذ وضعيته المعتادة. كان مثقلاً بالخجل، ورغبت ببساطة الانزواء عن الأعين. أغلق زجاج النافذة وأقعى في زاوية المقعد الخلفي. كنت أقود السيارة ونوافذها الأربعة مغلقة، لكني فتحتها بعد لأي لتنسم بعض الهواء العليل. لبثتُ

محدقاً في المرآة معايناً التعبير القارص على وجهه الذي لم يُبد أية علامة رقة أو لين.

في طريق عودتنا من النادي وصلنا إلى نقطة انعطف فيها الطريق المؤدي إلى المدينة عبر دغلٍ كثيف. عند هذا المنعطف استجمع تشيكو عزماً خارقاً وقذفَ نفسه خارج النافذة. كنت أقود السيارة بسرعة فائقة. ضغطتُ بقوة على المكابح وتوقفت بجانب الطريق راكضاً إليه.

كان تشيكو مبللاً بالدم. اصطدم جسمه بقطعة أنبوب سيراميك لتصريف المياه، تلاقت عيناناً. عكستْ عيناي ندماً وأسىً عميقين. وبينما تنهد في سكون من كان يواجه لحظاته الأخيرة تمنيت ألا يفارق هذا العالم بقلب مقهور.

استجمعت قوة متجاوزاً ضعفي وخذلاني، حملتُ جسده المدمى بين ذراعيّ، وأسرعت إلى الطبيب. في الطريق إلى العيادة تلمست نبضه طوال الوقت، وتأكدت من توالي ضربات قلبه.

نجا تشيكو من الموت.

بقي أثر جرح كبير على وجهه كذاك الذي يسم عضو مافيا.

إثر هذه الحادثة عاملته بعناية فائقة. حاولت ألا أُزعجه أبداً. حتى أني أَملتُ أن أعود ذات يوم إلى وطني حاملاً إياه على كتفي. لكن ذلك لَم يحصل.

غاب تشيكو من جديد. بعد مضي بعض الوقت عثرنا على بقايا منه في حاوية نفايات الجيران.

# نقطة دم

## Drop of Blood

- هذه هي قصة بضع نقاط دم. قصة غبية. لكن شيئاً ما رهيباً في السنوات الأخيرة ألقى بي في الحفر من جديد، وقد فضّلتُ أيامي الأكثر ظلاماً في السجن على هذا الذي سأقصه عليك.

لبث الرجل هادئاً للحظة، وبدا كما لو غرق في تفكير عميق.

التقينا في نادي الغولف بعيد سقوطه. وجد (تومي) في ذلك الدفء الذي نغمر به نحن الشرق أوسطيين أصدقاءنا. كان هو أيضاً من صنف السجناء السياسيين الذين نُظرَ إليهم من قبل المواطنين السود المتشددين وسواهم بازدراء شديد، مثلما نُظرَ إلى علاقتهم الودية بهذا المغترب بشكل وارتياب.

كانت لنا نحن الاثنين علاقة بالموسيقا، وقامت بيننا علاقة روحية تجاوزت اللون والعرق والأيديولوجيا.

ترجم تومي شكسبير. نُشرت أجود أعماله في إنكلترا وعُرضت مسرحياته في الأقطار الواقعة على طول شاطئ الأطلسي. تومي كان شخصاً متنوراً، كان كاتباً. كنت أول من

يتذوق طعم آخر أعماله، كما كان يقص عليَّ عذاباته كلما تحسَّسها.

حسدتُه جداً. التقى خلال سنوات سجنه شخصيات شتى، شاهدَ صوراً رهيبة، خبرَ رعب جهنم المتمثل في السجن الإفريقي ونظر إلى الموت في عينه. ولو أنه دوَّن ذكرياته لتقاطرت إليه زرافات دور النشر العالمية.

بدا، من خلال الجهد والارتباك البادي عليه، وهو يروي قصته، ظلُّ حادثة غير عادية. للحظة فكرتُ أنّ ارتباكه ناجم عن الاضطهاد السياسي المركّز الذي واجهه. رأيت الأيدي الشريرة في الظلام.

عندما يبدأ الرواة حديثهم لا يحبون أن يقاطعهم أحد، ولذا لم أقاطعه. لكن عندما غاص في عمق قصته المذكّرة بروايات آغاثا كريستي أدركتُ أن الحديث هو حول مشهد تراجيكوميدي.

بعدئذٍ ارتسمتْ فجأةً على محيّاه ابتسامة رضا معبّرة وتابع:

- عندما تتعرض حياة الإنسان لنكسة من الأساس وتتدهور نحو الحضيض، فإنه يُتهم بشتى الشرور، ومعظمها غير حقيقي. حتى ذلك اليوم لم تترفع (ديزي)، وأهلها فقط عن مجاراة التيار، بل ووقفوا بثبات في وجهه.

(كانت ديزي زوجته الثانية وكانت بنصف عمره. تزوج تومي في المرة الثانية عندما كان في ذروة تألّقه).

تابع حديثه:

- تحكّمُ المرء بمشاعره وسيطرتُه عليها يعني تحكّمه بحياته. السجن، السجن الإفريقي علّمني كل هذا. بعد عدة انهيارات عصبية في السجن اشتملني هدوء بالٍ لافت وبدأتُ أرى الأشياء من زاوية مختلفة. أحببت الناس من حولي بضعفهم وحتى بحقاراتهم. اكتسبتُ قوة فوق بشرية، ربما إلهية، لمسامحة أعدائي من الجلاّدين. أقول لك هذا كي ألقي بعض الضوء على فتور شعوري مؤخراً، على سلوكي الذي يصعب فهمه وسبر غوره.

يُقال إن وراء نجاح أو فشل أي رجل تكمن امرأة. كانت ديزي أكثر من مجرد صديق في أوقات المجد. بعد اعتقالي عاشت معي هول المشنقة، وما هو أسوأ أنها تحمّلت ازدراء ما يُسمون أصدقاءَنا، وخزي زوجة خائن كل دقيقة وكل يوم على مدى سنوات. وفي الشارع احتاجت إلى كل القوة التي تستطيع استجماعها لتجاوز هزء وشتائم الجيران المنهالة عليها.

في ظروف الحياة الزوجية العادية من السهل على المرأة اتخاذ دور الزوجة المخلصة والمتفانية، الثقة بزوجها وتقديسه. لكن ما إن تسوء الحال وتطرق العاصفة الباب حتى ترى نفسك بحاجة إلى صدر يحميك، إلى امرأة حقيقية. وديزي صمدت في وجه العاصفة بأعصاب حديدية، لكن أعصابها الحديدية انهارت أمام قصة نقاط الدم الشائنة هذه.

بعد إطلاق سراحي من السجن لمستُ استحالة العثور على عمل شريف مناسب. نحن الأفارقة وحوش ضارية... عندما نبدأ بتعذيب شخص نفقد كل إحساس بالمعقولية... وهكذا

فضّلت البقاء في البيت والعمل على مشاريع أدبية. وليتني لم.....

أنا لا أؤمن بالمصير المقَدَّر. المصادفات هي الشيء الأساسي. وهذه النكتة - مصادفات الحياة - كانت فاجعة بالنسبة لي وكادت تكلفني حياتي... فبصفتي وزيراً للإعلام دُعيتُ من قبل حاكم البلاد لإذاعة نتائج الانتخابات وإعلان اسم رئيس الحكومة الجديد. لكن بدلاً من التوجه مباشرة إلى الإذاعة عرّجتُ قليلاً إلى الوزارة، فارتكبتُ بذلك أعظم خطأ في حياتي. ففي تلك اللحظات الحاسمة حصل انقلاب واحتُلت دار الإذاعة. ثم تبع ذلك انقلاب مضاد وأُدنتُ بالخيانة وبعقوبة الإعدام.

النكتة الثانية تزامنتْ مع إطلاق سراحي من السجن. كنت أقوم في كل صباح بإيصال زوجتي إلى العمل وأطفالي وشقيقة زوجتي ابنة الخمسة عشر عاماً إلى المدرسة بالسيارة. ذات يوم وفي طريق عودتي لا أعرف كيف شدّتني قوة خفية ما لاتخاذ مسار آخر باتجاه طريق يمر بجانب سجن (بادمبا). فكنت قرّرت ألاّ أدع أحبابي يعيشون كابوس سنوات سجني من جديد. نسجت خططاً سرية حول كيفية نسف تلك الكتلة المظلمة التي تسمى سجن بادمبا. ثم قادني التفكير إلى استكمال خطتي في تفجير كل سجن آخر وإلى جهنم. لكني وجدتني ذات صباح، وتحت ثقل إحساسي بضعفي وعجزي، أبصق باتجاه الجدران العالية للسجن. في تلك اللحظة - ويا لها من مصادفة - بصق رجل عجوز من أبناء قبيلة (كريّو) من نافذة الطابق الثاني.

سقطت البصقة الكثيفة اللزجة المائلة إلى اللون الأخضر على وجهي.

وماذا عن النكتة الثالثة؟ يجب أن أروي حكايتها وإن تكن سخيفة. المنزل الذي أعيش فيه مبنى خشبي على النمط الكولونيالي مؤلف من طابقين ويملكه والد زوجتي. عاش والدا زوجتي مع (ماري) و(ماتيلدا) في الطابق العلوي. وافقتُ مشفقاً على مساعدة ماتيلدا في دروسها، وهي بالمقابل اعتنت بأطفالنا. وجدتْ هذه الفتاة، وكانت بالكاد قد بلغت سن البلوغ، وقتاً لكل شيء عدا دراستها. في هذه الأنحاء تكون الفتيات في مثل سنها متململات ضجرات. وفي النهاية، لماذا الموانع الاصطناعية. دع الأمور تأخذ سبيلها.

لو أن ديزي لم تعثر على مشحات دم على الشرشف الأبيض لسريرنا لربما بقي انتقال أختها إلى مصاف النساء غير ملاحظ. ولو أن ماتيلدا كانت عضو منظمة سرية لكشفت سر الأعشاب المانعة للحمل.

عندما تفقد الفتاة المحلية عذريتها يتلو ذلك ضربها بشكل وحشي، كما لو كان ذلك جزءاً من طقس أكيد. وربما يساعد ذلك، إضافة إلى تنفيذ العقوبة، على منع حدوث حمل غير مرغوب.

في تلك الأيام، حيث كنت أُترجم "هاملت" شكسبير، اصطدم رأسي بحائط "نكون أو لا نكون"، واكتشفت في كل مرة معنى جديداً، صوتاً جديداً.... لكني فهمت معنى هذه الكلمات بعد أن

أُلقي بي في سجن ذي بابين حديديين. تدخل في باب لتدخل في آخر يُفضي إلى فناء يغيّبك عن الوجود. عَبَرَ هذا الباب كثيرون. والأرهب من كل ذلك هو عندما يلفون الحبل حول رقبتك، ثم يشدونه لتخور كالبقرة عند الذبح. لم نكن حتى متحضرين بما يكفي لتعليق الناس وشنقهم بشكل صحيح. هناك تحديداً عرفتُ المعنى الحقيقي السرمدي لسؤال شكسبير. لكني لم أتخيل أبداً أن تتطور الأحداث بمثل هذه الفظاعة ولتجعل الباب الحديدي الذي لا رجعة منه مرغوباً فعلاً بالمقارنة. ربما ستفكر لدقيقة أن تومي يطلق العنان لأحاسيس ومخيّلة الكاتب لخلق شيء مأساوي هائل من حادثة غير هامة.

لكن دعنا نقارب الموضوع واقعياً. فتاة مراهقة في ساعة إثارة عرضتْ عذريتها لامرئٍ اعتبرته مستحقاً لهذا الشرف. حاولت أم الفتاة وأختها الكبرى عبر تحقيقات واجتماعات سرية منع الكارثة. ونظراً لأني من خارج العائلة، ولأني شخص ليبرالي التفكير بخصوص مثل هذه الأمور، فقد استُثنيتُ هنا بشكل طبيعي من الدعوة لحضور هذه الاجتماعات السرية. لكن من استطاع تصوّر أية مكيدة كانت تُحاك ضدي! من استطاع تخيّل أن ديزي مع أمها بصدد محاولة تحويل حياتي الأكثر أو الأقل أمناً إلى جهنم؟ لم أكن حتى ذلك الوقت على دراية بوجود بقعة دم.

في الواقع، ما حدث مع ماتيلدا يحدث مع كل الفتيات في هذه المنطقة. حتى إنهن لا ينكرن عشّاقهن. فنحن الأفارقة نقدِّر الفتوة، حيويّة الشباب والجمال المتناسق للجسد. وسيكون كل

رجل إفريقي مستعداً للاحتفاظ بعشيقة شابة إن سمح له وضعه المادي والفيزيولوجي بذلك، لأنه يؤمن أنه إنما يجدّد بذلك شبابه مع الشريك الجديد.

واضحٌ أن زُعّار الشوارع لن يستثنوا ماتيلدا من خططهم. كنت على وشك أن أخفّ لمساعدة الفتاة المسكينة عندما دخلت النساء الثلاث غرفتي. انسحبت ماتيلدا مطاطئة الرأس إلى الزاوية ووقفتْ هناك وحيدة. في البداية أردت أن أستمع بهدوء لما سيُقال، لإيجاد بعض نقاط التبرير وتهدئتهن بقدر ما أستطيع. لكني لا أعرف كيف قطعْنَ صمتي.

يا إلهي! لم أر أبداً مثل هذا الغضب الشديد الذي بدا على وجه ديزي. ما رأيتُه من خلال العدسات السميكة لنظاراتي كان مذهلاً. من الواضح تماماً أنّ هؤلاء النسوة لم يكنَّ في مزاج المبالي أو المهتم بنصيحة.

لبثتُ جالساً - أو الأصح جامداً - خلف منضدتي. كان أكثر ما توقعتُه هو أن يتهموني بالتقاعس وإهمال واجباتي كصهر جيد. لكن والدة ديزي (حماتي) انتفضت واضعةً يديها على خصرها ومتخذةً وضعيّة قتالية. بدت ديزي - وكذلك أمها وأختها - أشبه بقنبلة يدوية جاهزة للانفجار. وانفجرتْ القنبلة فعلاً:

- كيف ستفسّر مشحات الدم على فراشك؟ - صرختْ في وجهي.

بعض لحظة تردّد اتجهتُ نحو السرير وتشمّمته من مسافة قريبة. فعلاً كانت هناك مشحاتُ دم لا يمكن إنكارها.

لم أعتقد أني على هذه الدرجة من السذاجة. فأنا حتى الآن لم أفهم تماماً معنى الكلام الموجّه إليَّ. فكّرتُ أن روميو حقيقياً انتهز فرصة انشغالي بـ "هاملت" وتسلّل مع ماتيلدا إلى سريري. لكن بدا مستحيلاً أن يدخل إلى غرفتي وتحت أنفي هذان العاشقان الوثيان ويسرحا ويمرحا دون معرفتي. وفجأة التمع شعاع نور في تلافيف دماغي...

تبينتُ فوراً الفعلة الفظيعة التي يتهمني بها هؤلاء النسوة بوجوده محتدة. هكذا تم تأويل حنوّي الأبوي لماتيلدا! ديزي، زوجتي المتزنة، ديزي الشجاعة غدت لا تُعرف من شدة حنقها. لا أريد التكلم عن أمها. أما ماتيلدا، تلك الظبية الجريحة المرَّوعة، فقد لبثت غارقة في الصمت. إزاء هذا الموقف قلتُ فجأة دون تفكير:

ـ لكن بقع الدم هذه هراء. لم أُبارح غرفتي تقريباً طوال اليوم!

ردت عليَّ ديزي ببرودة رخامية، ببرودة قاضٍ. فقد انتقلت من حالة إلى أخرى مثل ممثلة من الدرجة الأولى:

ـ لكن الحقيقة هي أن شرشف الفراش الملوث بالدم هذا يشهد ضدك، وماتيلدا فقدت عذريتها في هذا اليوم.

وجاء دور حماتي. ذكرتني بذاك الرجل العجوز من قبيلة (كريّو) عندما كنت أقود السيارة على طريق السجن، إذ بادرتني ببصقةٍ كبيرة في وجهي، ثم قالت:

- لعنك الله! كيف تجرأت، وأنت رجل ناضج، على الكذب هكذا! فعلاً كنت تستحق عقوبة السجن التي كلفتنا تضحيات ومالاً كثيراً حتى أخرجناك من السجن. أنا أخجل أن أسميك صهري!

- لست على حق في اتهامي بناءً على افتراضات واهية - قلت لها، ثم دعوت ماتيلدا لمساعدتي مضيفاً: - تكلمي يا بنت، قولي لهن ماذا حدث، وقولي الحقيقة! من كان شريكك، مغويكِ؟

انفجرت الفتاة بالبكاء قائلة بين الدموع:

- قلتُ لهن، قلت لهن ليس أنت. لكنهن لم يُردن تصديقي، لم يُردن، لم يردن! - واندفعت خارجةً كأنما تطاردها أشباح.

حاولتُ مواصلة حوار الطرشان لكن الكلمات علقت في حنجرتي.

كانت ديزي في تلك اللحظة هادئة، في حين استأنفت أمها توجيه الشتائم والإهانات لي. في مثل هذا الموقف على المرء ألا يسقط إلى... رأيت أن السكوت هو دفاعي الأفضل في وجه هذا الحشد ضدي. تطلبت اللحظة محاكمة للأمر ببرود. رأيت أن الحقيقة ستتكشفُ عاجلاً أم آجلاً. ارتبكتُ إزاء النظرات المحدقة في وجهي، لكني ضبطتُ نفسي وانتظرت. فهمتْ النساء سكوتي بمثابة إشارة أكيدة على ذنبي.

أخذت ديزي الأطفال وصعدت إلى الطابق العلوي. بقيت وحيداً مع الألم. السجن الذي تخلقه الزوجة أرهب من كل السجون. صدقني، في تلك الليلة اشتهيت تلك الزنزانة المنفردة

التي قبعتُ فيها والتي سمعت منها ذات يوم حتى الصباح خطوات المحكومين، بصحبة مرافقيهم، إلى المشنقة. اشتهيت ذلك الحبل الذي امتد بين الوجود والعدم.

فتلتُ في المكان حتى طلوع الفجر، ورأيت ما يسمونها الحرية مجردة من زخرفها. لا شيء، بل وهم... كيف حلمنا دون طائل بالحرية من خلال قضبان الزنزانة المعدنية.

فهمت حال ديزي. عاشت وحيدة مهانة، تعرضت لازدراء "الأصدقاء" وحملت ذلك الثقل غافلة. لكن إذا كان ذلك الانفجار ما لا يمكن تجنبه، فإن ما حصل لماتيلدا كان غدراً. الشخص الذي من أجل حبه قامت بكل تلك التضحيات كان مرتكب جريمة خسيسة ومع شقيقتها، شقيقتها الطفلة.

فشل إحساسي بالبراءة في التخفيف عني... كنت أتنزى غيظاً وحرقة.. حاولت تذكر لمحات محددة من سلوكي مع ماتيلدا ربما شكلت أساساً للشك... لمسة، نظرة مغوية ربما... جمال ماتيلدا المتفتح كان أساس السحر والافتتان. وهي بوعيٍ تام عرضت صدرها المكشوف شبه العاري أمام نظرات الشباب اللاهبة. لكني لم أشعر أبداً بإثارة محرضة.

كنت غائصاً في مقعدي عندما بدأ الشارع يضج بالحركة. سقطت أشعة الشمس الأولى على جفنيَّ اللذين لم يغمضا. لم أجرؤ على الاقتراب من السرير الذي استسلمت فيه ماتيلدا لواحدٍ من زعّار الشارع. عانيت إحساس المشارك في طقس وثني بكل المهابة والإثارة. لم أشأ الاستلقاء على السرير خشية

انتهاك جمال اللحظة. استسلمت للخيال بوصفي كاتباً، وربما كي أنسى الخزي والغصص الحارقة في الحشا.

كان يمكن أن أبقى على هذا الحال أسابيع مثل ناسك لولا طرقة عنيفة على الباب. غير راغب بالنهوض من مقعدي مشيتُ مترنحاً باتجاه الباب. أدرت المفتاح بحركة ميكانيكية وفتحت الباب. لم تكن ديزي خلفه فسُررت. في ليلة واحدة خلقنا صدع سنوات، أصبحنا غريبين أحدنا عن الآخر.

ماري الشقيقة الكبرى لزوجتي كانت نقيض شقيقتها تماماً. كانت لا تبالي بشيء حتى لو خرب العالم. لم تجد حرجاً في كونها أماً عازبة، بل على العكس بقيت تستضيف عدداً متزايداً من العشاق الجدد. مع إطلالتها في الباب أحسستُ بشعاع أمل ينفذ إلى داخلي. هي كانت متهتكة حتى الصميم، وقالت بما يشبه الدلع: - البارحة كنتُ خارج البيت. لكن أريد أن تريني بقع الدم الشائنة.

صحتُ مستنكراً: - لا، لا! أعتقد أن ما بي كفاني! لكنها، ودون أن تُصغي لاحتجاجاتي، خطت باتجاه السرير. لمستْ بخفة البقع بيدها، ثم أدنتْ أصابعها من شفتيها. لحستْ أطراف أصابعها، حدّقت بي بقصد وقالت:

- يا لهنّ من حمقى! ابني الصغير دلق قليلاً من عصير العنب الأحمر البارحة على الأرض في الطابق العلوي.

ثم تعلّقت برقبتي.

# كوكو شريف

**Kookoo Sherif**

أنزل صاحب المخزن سرواله ورفع تنورة الفتاة القصيرة البالية. كانت حافية القدمين، ولم يكن عمرها يزيد على اثني عشر عاماً. يمكن للمرء مصادفة أمثالها في كل زاوية في شوارع هذه المدينة الاستوائية المبنية على طراز (كريّو).

فتنت كوكو ببساطة بالحذاء الأبيض المعروض في نافذة مخزنه. انجذبت بكل كيانها إليه. كانت حافية القدمين طوال حياتها، مذ وعتْ وتذكرت، وفي حر الصيف وتحت المطر الغزير. مسح الرجل الأجنبي بعينين متشهيتين جسد الفتاة العارية، نهديها الناضجين قبل الأوان وساقيها الممشوقتين. وصل من ثم بشراهة واندفاع لا يُحد إلى ردفيها المكتنزتين.

كانت كوكو فتاة إفريقية صغيرة. عملت بائعة في الشارع للفول السوداني المحمص محمولاً في صينية على رأسها. كانت تسلّم في نهاية اليوم المبلغ الضئيل الذي تكسبه إلى زوجة أبيها.

سمعت كوكو من رفيقاتها بائعات البرتقال وثمار الكولا عن "الكرم" الزائد للتجار الأجانب. لكنها تعلمت من الحياة، بصفتها فتاة شارع فطنة، حقيقة بسيطة مفادها أن الرجال، من كل الأعمار، وأياً يكن العرق واللون الذي ينتمون إليه، لا يعطون شيئاً دون مقابل. عرفت أن عليها أن تدفع، بطريقة أو بأخرى، مقابل حذائها. اكتشف التاجر الأجنبي فوراً هذه الرغبة برغم الاضطراب الداخلي البادي عليها كفتاة صغيرة.

استغل الرجل الموقف. ناخ بكل ثقل جسمه على جسد كوكو شريف الدافئ الناعم. بحث بآلته الذكرية عن الطريق إلى داخلها ليفجر هناك فقط شهوته. لم تصرخ كوكو من الألم. سال مزيج ماء الرجل والدم على ساقي الفتاة الأبنوستين، وتركت النطاف الساقطة بقعاً زرقاء داكنة على الحذاء الأبيض كالثلج، مثلما خلفت أثراً لا يزول في نفسها كطفلة.

* * *

عمر كوكو الآن عشرون عاماً وحاملٌ في شهرها الخامس. لا تتذكر هوية "بطلها". تقبّلت لا مبالاة أبناء بلدها بخصوص الأبوة، فلم تفكر طويلاً بمسألة من يكون والد طفلها. أرادت فقط أن يكون لها ولد. جعلها الحمل ذات قوام مدوّرٍ مصقول، جميلٍ ومحبّب أكثر، وجاذبٍ لمزيد من الرجال إليها. هكذا كانت كوكو مسرورة بوضعها.

اعتقد كل من استطاع تتبع تطور حياة الفتاة الحافية القدمين بائعة الفول السوداني، وبالمقارنة بين ماضيها البائس

وحاضرها، أن العناية الإلهية قد لعبت بالتأكيد دوراً في تحوّل سير حياتها. تحولُها هذا أثار فضول كل واحد، لكن بقيت البواعث السرية التي تولدت في رأسها لغزاً غير مكتشف حتى النهاية. ما كان ممكناً أن تبقى كوكو كما كانت بعد الشهرة والحظ اللذين تحصّل لها منهما ما هو أكثر من كافٍ. فقد دلّها كثيرٌ من المسؤولين الحكوميين الكبار كل يوم.

بفضل شخصيتها الجسورة والمغامرة أصبحت كوكو شخصية أسطورية - كأن (روبين هود) عاد الآن في إهاب نسائي. فسلبت الأغنياء والأقوياء وأعطت رفيقاتها بنات الشوارع الخليعات؛ وإذا ما حملت إحداهن دسّت كوكو في يدها بضعة جنيهات. وعندما كانت تفتر حركة السوق في فصل الشتاء الطويل الذي لا تجرؤ معه حتى الكلاب المغامرة بالخروج إلى الشارع كانت هؤلاء الفتيات، اللواتي لا معين لهن، يتقاطرن جماعاتٍ إليها ويجدن عندها المأكل دوماً بوفرة.

فتحت كوكو شريف قلبها رحباً للأصدقاء والغرباء على السواء. كان من المحتمل أن تظل هائمة في الشوارع متنقلة من ذراعي رجل إلى ذراعي آخر، إلى أن تذبل وتذوي قبل الأوان لولا أن تبنتها أسرة من قبيلة (كريّو). وعلى الرغم من بعض عيوب (كريو) وظلمهم للفتيات الريفيات اللواتي يتبنوهن، فإنهم لم يحرموهن من التعليم. وحصلت كوكو على أعلى الدرجات في المدرسة في الوقت الذي كانت تخدم فيه أسيادها في وقت متأخر ليلاً. فترتب عليها، مع نضجها جسدياً، تلبية الحاجات

الجنسية لأهل البيت من الذكور سراً. لكن حصل، مع بلوغها الثامنة عشر من العمر، أن ضُبطت في الفراش مع سيد البيت. لم تستطع سيدة البيت قبول حقيقة أن زوجها البورجوازي ينحط إلى مستوى خيانة علاقة زوجية عمرها سنوات مع خادمة ريفية بسيطة وأمام عينيها. لم تقلقها خيانته الممتدة سنوات قبل الآن ما دام كان يُفرغ طاقته الزائدة بعيداً عن عش الزوجية. حتى إنها كانت مقتنعة أن أي رجلٍ عادي سيسعى لإشباع رغباته الجنسية في مكان ما في ظل ظروف معينة.

لكن ما شاهدتْه خَرَق قواعد اللعبة. أحست، وبإلحاح داخلي شديد، بالرغبة في تقطيع هذه الفاسقة إرباً إرباً. لكنها ضبطت نفسها، حاكمت الأمور ووازنت الموقف بدم بارد: ماذا ستكسب من افتعال فضيحة؟ وماذا كسبت أية امرأة من ذلك؟ كانت هي نفسها قد أهملت حاجات زوجها الجنسية عندما تحوّلت إلى كتلة من لحم وشحم. أخذت شهيته الهمجية للحم بخفةٍ متذرعة بتقدمه بالعمر. والآن لم تستطع تصديق عينيها عندما رأته، وهو في آخر خمسينيات عمره، وقد أصبحت غريبة عنه بالكامل تقريباً، يبدي فجأة حمية الشباب في عناقه كوكو. لذا فعلاً، يبدو الرجل كبيراً من حيث العمر بقدر ما تجعله زوجته يحس بذلك.

انتصرت المحاكمة الباردة. بعد حالة الاضطراب التي وسمت اللحظات الأولى أمرت سيدة البيت كوكو بجمع حوائجها والمغادرة بهدوء.

كانت هذه هي اللطمة الثانية في الحياة القصيرة لهذه الفتاة الإفريقية التي تركت أثراً في نفسها جعلها تدرك تماماً أن الأضعف دوماً هو من يدفع الثمن لقاء أخطاء وعيوب الآخرين.

بدأت حياتها الآن كفتاة شارع. تقاطر إليها الرجال من كل الألوان والمراتب كقطيع ذئاب جائعة. أصبحت لبعض الوقت خليلة صاحب قارب صيد سمك من صقلية. تعلمت كوكو منه المنطق الفريد للمافيا. تعلّمت أيضاً اللهجة الصقلية بسهولة أكبر مما تعلّم الصّقلي لغة كريو المحكية في الجزيرة. كانت ذكية. أبعدها الدهاء والبراعة، اللذين اكتسبتهما عندما عملت لدى أسرة كريو، عن الشوارع عندما احتفظت لنفسها بزبنٍ معينين متميزين. فكانت بحاجة إلى سكرتيرة شخصية لتنظم لها قائمة بأرقام طالبيها بالهاتف. لم يكن بمقدورها تلبية طلب الزّبن الراغبين بها بسهولة ودون مساعدة. لذا احتفظت لنفسها بالأكثر غنى وتميزاً وقدّمت البقية الباقية لصديقاتها.

لم تقبل كوكو أخذ عمولة أو هدايا من صديقاتها لقاء خدماتها لهن. كانت فكرة التعاطف الأخوي والوعي الحركي الاجتماعي هما ما تطورا ببطء في ذهنها. كانت الحركة التي ترأستها موجهة في المقام الأول ضد الطبقة الحاكمة السوداء وضد الأجانب، وبخاصة التجار الشرق أوسطيين، الذين معاً، إضافة إلى الهنود، طردوا أهل كريو المحليين من سوق العمل، تحكّموا به ونهبوا تقريباً الشعب المسلوب قبلاً.

التقت كوكو مصادفة الشاب الإفريقي المتعلم في أوروبا والمتخصص بالكيمياء. حمل هذا الشاب أفكاراً مناقضة لأفكار أولئك المثقفين ضعيفي الشخصية الذين تبنوا موقفاً انهزامياً. كان هو أيضاً بحاجة لامرأة ذات جمال. وفي سياق علاقته معها شحنَ روحَها بشعور التمرد وأشعل نار الثورة في حناياها. فبدلاً من محاربة المستغلين الأجانب صبَّ جام غضبه ضد القادة الأفارقة الذين كانوا شركاءَهم في الجريمة بتشجيع من تاجر الألماس الخلاسي الذي امتلك وحده قوة كافية للإطاحة بحكومة.

لم يكن ثمة في عرف كوكو سود، بيض أو رماديون. فالرجال من كل الألوان والقناعات أتوا إليها منحنين أمام جمالها انطلاقاً من بواعث واحدة متمثلة في إشباع الرغبات الجنسية. هكذا أضحت المرأة، التي أسهموا في تكوينها بهذا الشكل كنتيجة للظرف الاجتماعي، سلعة تباع وتشترى. وقرفُها منهم ألقى بها في أحضان مثليات الجنس. فالرجال استخدموها منذ طفولتها، لكن لم ينجح أحدٌ منهم في أن يشعل فيها النار التي تباهوا جميعاً بها. لكن كانت الحمم التي سكبها قلب الكيميائي المحترق هي فقط التي أدفأت كيان كوكو وأعماق روحها التي ظلت متجمدة حتى هذا الحين. حالة الكيميائي هذا كانت استثناءً.

انتقد هذا الشاب جهاراً قيادة البلاد، فاعتُقل بناءً على ذلك وألقي به في سجن (بادمبا). "دعوه يهمد قليلاً أولاً" - ذلكم هو التعليق الوقح الذي صدر عن الخلاسي بهذه المناسبة.

لم تستطع كوكو مسامحة الخلاسي على خطاياه. هي حقيقة لم تعرف ما الحب. لكن اعتقال الكيميائي أثار سخطها. لم تستطع تحمل فكرة أن يسحق بيروقراطي فظ أمل البلاد المشرق.

عندما زارته في سجون بادمبا وجدته شاحباً وضعيفاً. عرفت أنه لن يمكث طويلاً هنا. كانت الخطة التي وضعتها كوكو ونفذتها ثمرة سهر ليالٍ طويلة. خففت روح الانتقام عبء الحمل عندها وأحست أنها برشاقة غزال. ذهبت أولاً إلى مخزن ذلك التاجر الأجنبي ذاته. لم يكن جلياً، حتى لها نفسها، لماذا اختارته بشكل خاص ليكون ضحيتها الأولى.

شعرت بنفور شديد من الأجانب وذراريهم الخلاسية. ذكّرها تاجر الألماس بآخر عرفته باكراً في حياتها. لم تنس تلك التجربة الأولى. بعدها شعرت بالقرف والاشمئزاز منه كلما مرّت أمام مخزنه، وكانت تخفض رأسها وتنظر بعينيها إلى حذائها بحثاً عن البقع الزرقاء الداكنة.

لم يعرفها صاحب المخزن. فهو لوّث تنورات فتيات أُخريات كثيرة غيرها. فكيف له أن يتذكر وجوههن؟ حتى وإن عرفها، فلن يصدق تحوّلها.

حيّا التاجر الأجنبي هذا الجمال الإفريقي الرفيع بابتسامة علت وجهه. قدّم لها كرسياً وعرض عليها الجلوس عندما لاحظ وضعها. اشترت كوكو أربعة أزواج أحذية بيضاء وبعض الملابس والاكسسوارات للمولود الجديد. دفعت الثمن دون

مساومة. ترك كرم المرأة، جمالها وملامحها النبيلة انطباعاً عظيماً لدى صاحب المخزن - فرك يديه، رافقها حتى الباب وتفوّه بكثير من كلمات الشكر.

واصلت كوكو التسوق طوال الأسبوع. كرّرت السيناريو ذاته في المخازن الأخرى، وأعطت بعض المشتريات لصديقاتها في الشارع. لم يجد التجار ذوو الوجوه الزرق صعوبة في تفسير هذه الظاهرة - "يجب أن تكون خليلة شخصية حكومية هامة". وسأل الأكثر وقاحة بينهم كوكو: -" هل السيدة قرينة مسؤول حكومي". كان جوابها: -"ليس لي زوج، لكن صديقي شخص غني وقادر!".

برقت عيون التجار الغرباء.

رأت كوكو أن الجزء الأول من خطتها قد أُنجز بنجاح. توجهت بعد ظهر ذلك اليوم إلى السجن. وجدتْ صديقها شاحباً. لم تصمد الروح الحساسة والجسد الرقيق لهذا المثقف أمام الظروف اللاإنسانية في ذلك السجن الإفريقي. برغم حزنها لم تستطع إخفاء سرورها في كونها قادرة على قضاء بعض الوقت معه على انفراد. تفرّست في وجهه وتساءلت إن كانت قد عثرت أخيراً على بطلها. في هذه الزنزانة ظهر شبيه للمسيح، وكما لو كان يكفّر عن ذنوب قادة بلاده. وجدت كوكو نفسها متمنية لو كان هذا الكيميائي هو والد الطفل الذي تحمله في رحمها. بدا عليه أنه قرأ ما يجول في دخيلتها من أفكار. احمرّ وجهها خجلاً إذ أحست أنه أدرك أفكارها العميقة.

أحست بالإثم لأن لديها مثل هذه المفاهيم المحافظة. كانت قد حدّثته بكل شيء عن طفولتها وماضيها القريب دون إغفال أية تفاصيل. أراحها اعترافها بالذنوب لكاهن الاعتراف. لم تشعر بخجل من ماضيها. هي ببساطة لم تلتق رجلاً حقيقياً. فالرجولة عندها لا تُقاس ببضع بوصات متدلية من جسد ذكر.

كان الوضع مختلفاً كلياً الآن. هي لم تنمْ مع الكيميائي، لكنها أحسّتْ بما يشبه إشباع رغبة من خلال الحرارة الجنسية المنبعثة من نظراته ومن خلال كلماته الذكية فاق قدرة أي رجل على منحها متعة جسدية. قال لها:

- أنا أشتاق لك يا كوكو في زنزانتي.

- أنا مشتاقة لك أيضاً - أجابته المرأة بلغة "كريّو" وأحسّت للحظة أنه يكاد يُغمى عليها.

في الماضي كانت القضايا السياسية والاجتماعية هي موضوع حديثهما. لكنه في منعزله اكتشف ـ ولدهشته ـ أنه لم يكن غير مبالٍ كلياً تجاه كوكو بالمعنى الجنسي برغم الطبيعة الفكرية لعلاقتهما. أشرقت ابتسامة حزينة على وجهه.

حدّقت كوكو في عيني بطلها الغائرتين مُفعمةً بالإعجاب به، بينما كانت يداها مستلقيتين على بطنها المنتفخ. كان يمكن أن يكون مصيرهما مختلفاً كلياً لو أنهما أدارا أذناً صماء إلى الصرخات البائسة وتجاهلا عذابات أبناء بلدهما. ولو أن الظروف غير ما هي عليه الآن لكان بإمكانهما الانغماس في متع

جسدية في سرير وثير قائمٍ في شقة مريحة. سألها، وقد لاحظ انتفاخ بطنها أكثر نسبياً بالمقارنة مع ما كانت عليه عند لقائهما الأخير:

- من الأب؟

- الكل ولا أحد.

سرّه جوابها الذكي الذي لم يخلُ من فلسفة إزاء الدراما الإنسانية.

- وهل عاد تاجر الألماس الخلاسي من بلجيكا؟

- لا، أعتقد أنه ما زال يبحث عن شارين للقطع التي هرّبها.

أخبرته كوكو بإيجاز عن جهودها لتحريره من السجن. لكنه رفض تقديم أي طلب استرحام لقيادة البلاد:

- هل تذكرين قصة (سيمبو)؟ رضيت زوجته الشابة أن تنام مع كل واحد منهم من أجل إنقاذ زوجها، ومع شخصية حكومية رفيعة. وعندما نالوا مبتغاهم منها شنقوه.

لم تكن كوكو مستعدة لأن تكون لقمة سائغة لهؤلاء الوحوش. كان عندها دزينات من العشاق. بإرادتها عاشرتهم. لن تدعهم يستخدمونها بحرية. هي ستحرر بطلها ببراعة وستجعل ذلك الخلاسي وأبناء بلاده من ذوي الوجوه الزرقاء يدفعون أثماناً باهظة لقاء كل دقيقة قضاها صديقها الكيمائي في السجن. لقد حطَّ علينا هؤلاء مثل الجراد قبل نحو ستين عاماً. جمعوا أكواماً من المال، والآن يتحكمون من خلال ثرواتهم بمصير الإنسان الأسود

الـذي يعـيش بائـساً مطـأطئ الـرأس. تحـوّل اهتياجهـا إلى كلمـات فقالت متنهدة: ـ متى سنتخلص من أصفاد الأجانب؟

لبث الشاب صامتاً. بدا إحساسه بعجزه من خلال طأطأة رأسه. لكنه قال في سرّه ـ "وماذا عن السود الذين يستغلون أبناء جلدتهم؟".

* * *

أوقفت كوكو سيارتها اليابانية البيضاء أمام مخزن التاجر الأجنبي في الساعة العاشرة قبل الظهر، وكانت قبل خروجها قد تزيّنت وارتدت ثياباً مناسبة بحيث بدت في أكمل مظهر. حرصت أن تبدو متماسكة دون انفعال أو هياج. نظرت إلى المخزن وما حوله بعينيها السوداوين، رأت الباب السري المعروف الذي تلطّخت خلفه ذات يوم، وهي طفلة، روحها البريئة.

هذان هما عيناه الشهوانيتان ما تزالان على حالهما، لكن بطنه صار أضخم الآن. فالرياضة الوحيدة لهذه الآلات الشبيهة بالبشر هي الجلوس خلف طاولة البوكر. بدأ كعادته يفرك راحتي يديه ببعضهما عندما لاحظ دخول كوكو شريف إلى المخزن. لم تدم حماسته طويلاً. فجأة غدا وجهه الخالي من المشاعر مربكاً عقب رؤية وجهها المتجهم. تظاهر بالاهتمام وقدّم لها كرسياً للجلوس، ثم قال لها مدعياً الاهتمام بمصلحة العرق الأسود:

- تبدو السيدة غير مرتاحة...

- لستُ مريضة، لكني مشغولة البال قليلاً. لو لم أكن في مرحلة نهاية حملي لكان باستطاعتي تدبّر أمري إلى حين عودته.

قام الرجل فوراً بمسح ذهني لقائمة المسؤولين الحكوميين محاولاً تذكر من كان منهم مسافراً خارج البلاد، من أجل تحديد هوية الوغد المحظوظ الذي امتلك هذه المرأة الجميلة. بقيت المرأة صامتة تاركة فضول الرجل يدخل في إشارات استفهام تدق رأسه.

- لا أحب أن أبدو فضولياً، لكن خليلة من تكونين يا آنسة كوكو؟

- هو شخص مهم. لا أجرؤ على كشف اسمه.

عيل صبر الرجل تقريباً. غدا من المهم، وبشكل ملح بالنسبة له، معرفة هوية الرجل. فيمكن الحصول على بعض المنافع من الدولة من خلال المرأة.

سهّل الفضول المتزايد لهذا الرجل القذر مهمة كوكو. أحست بالرضا عن سير المحادثة. اقترب منها، وبحركة موحية بالإلفة وضع يده على كتفها العاري. تدفق القرف المعهود تجاهه في عروق كوكو. الآن انقلبت الأدوار. هي من يتحكم الآن بالوضع. سحبت كوكو الرجل وهمست باسمٍ في أذنه المشعرة. رجع الرجل مندهشاً إلى الخلف وحدّق فيها بعينين مفتوحتين على اتساعهما. فغر فاه كما لو كان أراد أن يقول شيئاً، لكن الكلمات التي أراد قولها بقيت عالقة في حلقه.

- "...؟".

- هو نفسه؟ الصديق الحميم لرئيس الجمهورية؟

كانت لدى الخلاسي المقصود زوجة من بنات بلده جميلة، وليس سراً أيضاً أنه كان ضعيفاً بشكل وحشي أمام الفتيات الأفريقيات. أصبح كل شيء واضحاً في ذهن هذا الرجل صاحب المخزن. كان متأكداً من أن المبالغ التي صرفتها المرأة هي بكل وضوح فوق قدرة فتاة سوداء بسيطة.

بحركة دراماتيكية قام وتناول محفظة نقوده.

في اليوم ذاته حصل الشيء ذاته مع عدّة تجار أجانب آخرين.

* * *

عاد الخلاسي إلى مدينته الأفريقية الرطبة بمعنويات عالية. وكان الله قد أنعم على كوكو شريف بمولود صبي. قبل ذلك كانت قد جمعت من التجار عشرة أضعاف تكاليف الولادة والمستشفى. لم يعد سراً في أوساط السوق أن الخلاسي قد رزق بابن غير شرعي. لكن احتفظ كل واحد منهم لنفسه غير عارفٍ أنهم أصبحوا جميعاً أعضاء في النادي السري ذاته.

تلقى الخلاسي مكالمات هاتفية غامضة، وتفوّه المتصلون جميعاً بكلام ذي معنى واحد. وعندما هدأت الألسن أدرك هذا أن الفتاة السوداء قد خدعت عشرة تجّار كلاً على حده. إزاء ذلك تملكه الغيظ.

كانت كوكو شريف اسماً معروفاً من قبله. قبل عدة أشهر استضافها على يخته... كانت عاهرة درجة عالية ودفع لها غالياً. انحطت سمعته الآن وهو في ذروة تألقه بسبب مومس. أصبح الفخّ الذي وقع فيه الرجل مادة حديث متداول في حفلات كوكتيل السلك الدبلوماسي.

كان على الخلاسي أن يخفف من اثر الصفعة التي تلقاها. هدّد في البداية. أرسل عدّة وسطاء بعد ذلك. وعدها بمال وهدايا في محاولة لإعطاء الحالة مظهر سوء الفهم. تداول المراسلون الصحفيون الإشاعات وبيعت الجرائد بأعداد كبيرة.

رفضت كوكو بشكل قطعي مقابلة الخلاسي في مكان منعزل. وصرّحت لممثلي الصحافة قائلة" "مسؤولية الأب أن يزور مولوده الجديد. وهو مرحبٌ به".

وجد الخلاسي نفسه مضطراً إلى حل دبلوماسي.

بعد عدّة أيام من لقائهما أُطلق سراح الشاب الكيميائي.

# ماما فيفي، أين أعواد الثقاب؟

## Mama Fefe, Where are The Matches?

كان الوقت بُعيد الظهر في (يورك)، القرية الاستوائية المطلة على المحيط الأطلسي الزمردي اللون. بعد تناول اللحم المشوي أويتُ مع زوارّي من الأصدقاء، اتقاءً من أشعة الشمس الحارقة، إلى تحت صفصافة الظلال.

وبينما كنت مستلقياً باستمتاع في ظل هذه الشجرة الضخمة، ومستغرقاً في نعيم قيلولة نادرة بُعيد الظهيرة سمحتُ لنفسي التلذّذ بها في أيام الآحاد فقط، طرق سمعي صوت المرأة الرئيسة الخشن:

فتحتُ عينيّ على اتساعهما. كانت واقفة فوق وجهي بثدييها الضخمين المتدليين مثل مصباحي السقف. كانت بخفيف ملابسها وحافية القدمين.

- ما المشكلة يا ماما فيفي؟ .سألتها غير قادرٍ على إخفاء امتعاضي؟

- أرجوك يا سيد.. انهض من فضلك!

* * *

بعد بضعة أسابيع وفي يوم أحد توجهت إلى مركز القرية عن طريق الرمل الأبيض بين الأكواخ الطينية. عندما وصلت إلى كوخ (بنار تشوكو) الكائن قرب بحيرة استوائية شكلها المد والجزر، وأحاط بها صفٌ من أشجار جوز الهند، برز خلفي فجأة رجلٍ إفريقي أشيب، أمسك بي من ذراعي وجرّني إلى كوخه.

كان هذا (ألفا ممادي) أمهر صيّاد في القرية. ففي حين لجأ صيادون آخرون إلى تقديم الأضاحي في "جزيرة الأرواح" بغية طرد الأرواح الشريرة عند نهاية أيام صيد غير مثمرة، كان قارب ألفا يتهادى ثقيلاً بحمله من وفير الصيد لدرجة الخشية من غرقه قبل الوصول إلى الشاطئ. وكان ألفا، في أوقات فراغه، يضطلع بأداء شعائر وطقوس دينية إسلامية من قبيل الهواية من جهة، وأيضاً كمصدر دخل إضافي من جهة أخرى. اعتقد أهل القرية أنه يحظى برعاية الأرواح.

لكن بصرف النظر عن التقدير الذي حظي به في وسطه، فإنه لم يُعجبني، وتضايقتُ من طريقة شدّه لي من ذراعي. أحسستُ بالنفور أيضاً من يده الدبقة ورائحة عرقه وشبه الابتسامة العريضة التي كشفت عن أسنانه التالفة البنيّة الشبيهة بلون جو ز الكولا.

- هذا كلّه لك يا سيد . قال ذلك مشيراً بيده إلى طاسة قرع ملأى بسمك الكركند وأحياء البحر الأخرى.

وضعتُ يدي اليمنى بشكل غريزي في جيبي. لكن قلت له عندما أدركت أني في ملابس البحر:

- ألفا، أنا لا أحمل الآن أية نقود. أرسلُ أحداً ما إلى بيتي في وقت لاحق وسأدفع لك الثمن.

- لا، لا يا سيد.. هذه هديتي لك ـ دمدم ممادي.

كانت الهدية سخية. أثار الرفض الحازم من قبلي ألفا، فراح يقفز حولي محتجاً، وألحّ، متشبثاً بذراعي، على قبول هديته.

- سأقبل هديتك بشرط أن تقبل مني بالمقابل.

- أنت تهين ألفا ممادي يا سيد ـ قال لي ذلك، ثم التفت إلى زوجته الشابة التي كانت جاثية في الزاوية وقال لها: ـ دعي السيد يرى المولودين الجديدين.

تقدمت المرأة الشابة نحوي مرتبكة حاملة المولود الجديد. كان صغيراً جداً، حتى كاد أن ينزلق من بين ذراعي أمه.

أضاف ممادي بعد أن أفلتَ ذراعي أخيراً:

- إني مدينٌ لك بحياة هذين الطفلين. دع ألفا يرد لك الجميل على طريقته، دعه يقلْ لك شكراً.

حضنتُ أحد الطفلين الأسودين بين ذراعيّ. أحسستُ بسخونة هذا المخلوق الصغير شبه العاري تسري إلى صدري وقلت:

- ما شاء اله يا ممادي!

كان الممر من كوخه المؤدي إلى الخارج معتماً.

* * *

قالت الداية ماما فيفي:

- أرجوك يا سيد ساعدني. زوجة ألفا ممادي في حالة مخاض. إنها تتألم، بالكاد تستطيع رفع ظهرها، وغير قادرة على السير إلى المستشفى.

لم أحب في حياتي الطريق إلى المستشفى. أحسّت ماما فيفي فوراً بترددي فأضافت:

- إنها حالة حمل خطيرة، هي حامل بتوأمين حسب رأي الطبيب. إن لم نوصلها إلى المستشفى سأضطر إلى سحب الطفل بنفسي.

كان فمي جافاً وذا مذاق مر بسبب القطع المفاجئ لنومي. شعرت بإلحاح بالحاجة إذ ذاك إلى كوب من القهوة.

أسندت قرويتان المرأة المخاض من ذراعيها وصولاً إلى السيارة وساعدتاها في تسلّق المقعد الخلفي. جلس بجانبها من اليمين ومن اليسار كل من ماما فيفي وامرأة أخرى نحيلة كبيرة السن.

ما زال جفاف فمي على حاله. افتقدتُ غليوني. لم يُتح لي وقت لجلبه. حصل كل شيء بسرعة وعلى نحوٍ غير متوقع. قد يحاول المرء اعتماد إيقاع بطيء في حياته، غير أن المفاجآت تُحبطه.

استمرت حرارة ما بعد الظهيرة تكوي وتجفّف كل شيء. فجأة انتشرت رائحة حادة في السيارة. لم يسعف الهواء المحمّل بالغبار الداخل من النوافذ المفتوحة. كان من الصعب القول إنْ كانت تلك رائحة ماء المرأة المخاض الذي يسبق ولادة الطفل، أم رائحة اختلاط عرف النسوة الثلاث.

تضع حوادث معينة مشاعرنا الإنسانية أمام اختبار. أحسستُ بالضيق رغماً عنّي، وفاقمت وعورة الطريق هذا الإحساس. تساءلتُ ـ ماذا لو أجهضت المرأة فجأة؟ ماذا لو حصلتْ الولادة قبل أوانها؟ هل بإمكان الداية المجرّبة المساعدة في ولادة التوأمين إذا سارت الأمور كما تشتهي؟

كانت فكرة ولادة طفل في الطريق مرعبة. ليس لدينا حتى أبسط العدّة اللازمة من أجل ذلك. وماذا سيحصل لو فرغ أحد

إطارات السيارة من ضغط الهواء؟ انتابتني شتى الهواجس. كانت حياة التوأمين وأمهما معلّقة بخيط رفيع، وأي إهمال أو خطأ من قبلي يمكن أن يتسبّب بقطع هذا الخيط.

حاولت المرأة بجهد خارق كتم صيحات ألمها. واستّها ماما فيفي وشجعتها في محاولة منها لتخفيف الألم الذي بدا أنه قد شملها هي أيضاً. كانت ماما فيفي امرأة مجربة، وساعدتْ، بصفتها داية القرية، في ولادة أجيال عديدة. لقد شبّ الأطفال الذين أنقذتهم وكبروا فاختاروها رئيسة للقرية. لكن الزمن في تغيّر. فمع مرور السنين تعبتْ هذه المرأة وأحسّت بتغير المواقف تجاهها. أحسّتْ بالاغتراب. اكتشفت أنه من الصعوبة الثقة بامرئ، وأنه ما من أحدٍ يخفّف عبء همومها. آذاها كثيراً الموقف المتنفّج للجيل الجديد. استعاضوا عن خدماتها بخدمات قابلات (كريوّ) اللواتي يتكلمن الإنكليزية. برغم كل ذلك ظلّت رئيسة مبجّلة تخدم قريتها بنكران للذات ومتجاهلة الإهانات.

استطعتُ رؤية وجه ماما فيفي القلق من خلال المرآة العاكسة للمشهد الخلفي. استطعت تقريباً قراءة الأفكار الكامنة خلف تجاعيد وجهها العميقة. لكن انتباهها كان موجّهاً للمرأة الماخض التي لبثت صامتة الآن استجابة لكلمات ماما فيفي المهدّئة من جهة ولارتباكها وحرجها من "الرجل الأبيض" من جهةٍ أخرى.

لكن ظلّت أدعية ماما فيفي، وتمنياتها الطيبةً تكسر الصمت:

- "بارك الله بك يا سيد!".

- "اللهم احفظ الأطفال!".

- "بارك الله بالرجال البيض أمثالك!".

- "أدعو الله أن يعطيك الكثير كي تستطيع بالمقابل مساعدة قريتنا!".

قادتنا توجيهات ماما فيفي إلى طريق قذرة تحيط بها من جانبيها حقول معشوشبة. جفلتْ مجموعة قرود لدى سماعها هدير سيارتنا، ففرّت مبتعدة باتجاه الغابة. بعد برهة قصيرة برز في مواجهتنا مبنى أبيض. بدت الأكواخ البائسة الممتدة أمامنا وسط الحقول الخضراء خاوية مهجورة. كان كل شيء هادئاً تماماً. الصوت الوحيد الذي خرق الهدوء الشامل هو صوت مجموعة أطفال يلعبون على مبعدة منّا. عدم وجود حركة حول المبنى جعلني أفكر أنه ربما كان الناس المحليون قادرين على التغلّب على الألم بواسطة أدويتهم الشعبية التقليدية. فكان هذا الذي يسمونه مستشفى خاوياً لا مرضى فيه على ما يبدو.

توقّف الأطفال عن اللعب فوراً، وتحلّقوا حولنا. زاد من فضولهم وجود "الرجل الأبيض" وسيارته اللمّاعة. استدعت ماما فيفي بإشارة من يدها أطول الأولاد وقالت له مشيرة إلى المرأة الشابة: ـ "هذه المرأة في حالة مخاض. ناد الممرّضة!". ركّز الولد عينيه المندهشتين المتسائلتين عليَ. حاول بذهنية طفل إيجاد علاقة بين المرأة الحامل وبين هذا "الرجل الأبيض". وعندما لم يجد تفسيراً معقولاً تحوّل عني وركض باتجاه بناء ملحق بالمبنى الرئيسي. لو كانت المرأة الحامل من طبقة وسطى لربما كان من الأسهل عليه تفسير الحالة.

احتفى الأفارقة بولادة الطفل كما يحتفون بالزفاف. جرت العادة أن يتبعوا المرأة الماخض إلى المستشفى جماعات. وكثيراً ما يصل ضجيجهم وابتهاجهم إلى جناح التوليد قبل وصولهم إليه. ولاحقاً، بعد ولادة الطفل، يرجعون إلى القرية بالزمور والطبول.

طالت فترة الانتظار. كانت المرأة المسكينة تتفض وتتلوّى من الألم. وفي هذا الوقت حاولتُ أيضاً كبت صوت ألمها. لم تقوَ ماما فيفي أكثر على تحمّل معاناة المرأة المسكينة. راحت هذه الأخيرة ترجو وتصرخ بلهجة قبيلتها. لم يكن لدى المرأتين الأخريين فضلة من ثياب لستر المرأة. نفذ صبر ماما فيفي. لحقتُ بممرضة كانت تدمدم لنفسها بكلام غير مفهوم، إلى الحجرة الأخرى. بدت كل لحظة أطول من الأبدية. كان صدى صراخ المرأة السوداء يتردد في أعماق الغابة التي تحكمها قوانين أخرى مختلفة - قوانين قاسية لا ترحم بخصوص الحياة والموت لا علاقة لها بالقرن العشرين، ولا تتوسله.

شالت بي أفكاري بعيداً باتجاه تفاهات الحياة. أنا حافي القدمين وبثياب البحر. كتمتُ ضحكي. ماذا أفعل هنا وسط كل هذا وبعيد ظهيرة يوم أحد؟

ظهرت ماما فيفي أخيراً من جديد خلف الباب المزدوج. سارت خلفها امرأة متوسطة العمر فاتحة البشرة. نمّ التعبير البادي على وجه المرأة عن عدم رغبتها في التعاون. بدت متجهمة، كما لو كانت قد أفاقت للتوّ من نومها. لم تحاول حتى إخفاء انزعاجها من الوضع. كانت كأنما أرادت القول كيف يقلقون راحة قابلة مشهورة

مثلها في يوم أحد. تمايلت في مشيتها مارةً من أمام المرأة المسكينة التي كانت تتلوّى من الألم حتى دون تكليف إلقاء نظرة عليها. قد تكون قالت لنفسها: -"ألم تجد هذه وقتاً أفضل لتلد؟ تصرخ دون خجل. يجب أن تعرف المرأة كيف تمسك لسانها.. نساء هذا الزمن يصحْنَ استمتاعاً دونما خجل في أحضان أزواجهن لدرجة إيقاظ كل الجيران، ثم يكررْنَ الصياح ذاته أثناء الولادة لاستجلاب بعض الانتباه. جيل فاسد!". ثم وجّهت نظرة متفحّصة نحوي، مثل ذلك الولد قبلها، عسى تكتشف رابطاً ما بيني وبين هؤلاء النسوة. لكن بدا أنها لم تُسر بما اكتشفت.

بعد وقت قصير ظهرت فجأة ممرّضة من طبقة وسطى على ما يبدو من مظهرها مع ابتسامة غبية على شفتيها. قلتُ لنفسي عند رؤيتها للوهلة الأولى - أغلب الظن أن هذه لن تعثر على رجل يقبل بها. صاحت قائلة:

- خذوا هذه المرأة.. انزعوا عنها - بحق الله - هذا القميص القذر.

نزعوا الثوب عن المرأة عند المدخل، ثم اختفى جسدها الأسود العاري خلف باب مزدوج. كانت القابلة ما زالت في الحجرة الخارجية. بعد برهة قصيرة خرجت الممرضة من باب جانبي ضيّق لتلقي الأوامر الجديدة.

- أشعلوا النار...

- ليس لدينا كبريت، ولم يبق عندنا حطب - قالت الممرضة بنبرة أشبه ما تكون بتلميذة مدرسة حفظت درسها.

هزّت القابلة كتفيها وقالت:

- هذا أمر سيئ. لا أستطيع سحب الطفل دون ماء ساخن ـ قالت ذلك موجهة كلامها إلى ماما فيفي، ثم أضافت:

- هذه ليست غابة كما تعلمين.

أحسّتْ ماما فيفي بالقهر. كانت امرأة عزيزة النفس، كانت ابنة الغابة. لم تقلْ شيئاً. تحملت اللوم على عاتقها. كانت امرأة مجرِّبة ذات خبرة طويلة، وكان يحسن بها أن تكون مستعدة لكل شيء. آلام المرأة الشابة خبلتْها. اعتادت ماما فيفي أن تكون الكلمة الأخيرة لها. وفي هذه المرة اختارت مقاربة الوضع بدبلوماسية. رجتْ القابلة بكلام حلو أن تغفر لها سهوها:

- لا بأس يا أخت، أقرضينا حطباً وكبريتاً. لاحقاً عندما يعود ألفا ممادي من الصيد يحضر لكم عشرة أضعاف ذلك. سيقدم لكم سمكاً طازجاً أيضاً.

- ماما فيفي، تبقى وعودك جيدة إلى أن ننتهي من العمل - أجابت القابلة بفظاظة وبلهجة عصبية - سيكون مصير وعودك النسيان في لحظة خروجك من هنا. ثم أضافت متهكمة:

- آسفة يا ماما فيفي، آسفة ألف مرة. لكنْ هذه مشكلتك وليست مشكلتي.

للصراع بين المرأتين المولّدتين قصة قديمة. الإعجاب بماما فيفي في هذه الأنحاء أغاظ هذه القابلة الجديدة الموظفة منذ أن قدمتْ إلى هذه المدينة. كافحتْ ماما فيفي وزوجها الطبيب على مدى سنوات لإدخال الطب الحديث إلى هذه المنطقة من خلال

تعليم الناس المحليين فوائده. دارت في رأس ماما فيفي أفكار غريبة. كان بمقدورها توليد المرأة. كيف يمكن ألا يوجد في المستشفى علبة كبريت؟ وماذا حصل لحطب الغابة؟ لم تشأ الاستمرار في الجدال. وعلى كل حال ليس لديها وقت من أجل ذلك. يمكن أن تبدأ لدى المرأة المسكينة نوبات إطلاق المولود في أية لحظة. هي تدرك مدى عناد أبناء (كريّو). حياة هذين التوأمين وأمهما لا تساوي عود ثقاب بنظر هذه المرأة. عاشت ماما فيفي هذا العمر الطويل لتكتشف هذه الحقيقة المرة.

تابعتُ عن بُعد هذا الجدال الذي لا نهاية له على ما يبدو. هرعت إلى سيارتي، فتحت في عجلة الصندوق الصغير في واجهتها، تناولت ما توفر فيه من نقود، ثم عدتُ أدراجي وأعطيتُ ما بيدي للقابلة راجياً إياها:

- أنقذي حياة هؤلاء الناس بحق الله!

هل المهم الآن عود ثقاب، أو علبة كاملة... فخلف الأبواب امرأة أفريقية تضع مولوداً للمستقبل.

# الغابة في الإنسان

## The Bush in The Man

في الصباح الباكر بدت البحيرة الرائقة التي تحفّ بها أشجار جوز الهند شبيهة بلوحة زيتية جميلة. تحرّك القارب الخشبي الهزيل مغادراً الميناء الطبيعي. كان الصبي ابن الاثني عشر عاماً يجدّف بمهارة بقاربه هذا المطلي بالقار. بدا في ذراعيه النحيلتين السوداوين امتداداً للمجدافين مشكّلاً مع القارب كتلة واحدة متجانسة، كما لو كان قُدَّ قطعة من شجرة الماهوغاني.

كان جلياً أنه متجه بعيداً لاصطياد السمك في المياه العميقة للبحيرة. ربط طرف خيط الصيد في إبهام قدمه وألقى الصنّارة حاملة الطعم في الماء. لم يلاحظ، في غمار حماسته كفتى، الكتلة الرمادية السابحة إثر قاربه. فجأة ضاعف التمساح سرعة حركته. تقلّصت المسافة الفاصلة بينه وبين القارب، وسرعان ما تلاشت مع غطس التمساح واختفائه تحت الماء. تمايل قارب التجديف قليلاً، تشبّث الفتى بمجدافيه كي يتوازن، لكن سرعان ما انقلب القارب المترنّح وغاص في مياه البحيرة العكرة الآن.

بعد وقت قصير برزَ رجل متقنعاً بإهاب تمساح من الدغل حاملاً الفتىً الميت. علَت وجهه تكشيرة شهوية فاسقة. لكنه سرعان ما خلع قناعه واختفى في دروب الغابة حاملاً غنيمته.

* * *

في عام ١٩٧٤ صحا الوزير السابق (بومبالي) من نومه فجأة وجلس على طرف سريره في الزنزانة الضيّقة. مسح العرق المتصبّب على جبينه بخرقة. كان كابوسه المتكرّر هذا هو ما تسبّب بتعرقه الغزير، وليس الحرارة الخانقة في داخل هذا السجن الأفريقي. كان يرتجف كلّه. مع تفاقم وضعه صارت تعاوده الكوابيس أكثر. في حالات نادرة، كما الفسحة المشمسة التي تبرز في السماء خلل الأيام الحزينة الممطرة، كان يلتمع شيء من أحلام أسعد في مخيلته. كان أحياناً، وهو بين النوم واليقظة، يوجّه أحلامه نحو مواضيع أكثر مدعاة للسرور. بدأت مثل هذه الأحلام بتذكّر واجترار أيامه الخوالي.

في الصباح كان يصل إلى الوزارة متأخراً قليلاً ويمشي عبر الأورقة إلى مكاتبه المفضلة. تحيِّيه السكرتيرات الحسناوات بابتسام وإعجاب. قامته الممشوقة ومشيته الملكية جعلتاه مثار إعجاب الجنس الآخر. منذ تعيينه في منصبه لعب بطيش بالمال، وبسهولة وفّق بين بزته "الماوية" وبين أرصدته في البنك السويسري. أحبَّ منصبه الذي كانت له رنّة سحرية. كانت الامتيازات كثيرة: مال، نساء، احترام، شامبانيا وردية، رحلات

متكررة إلى الخارج، وطبعاً على حساب الدولة. أيّها بإمكان المرء تذكرها الآن؟ بأيّها يعترف؟

في الساعة الواحدة بعد الظهر كان يصطحب عادة، إذا لم يكن في برنامج مواعيده غذاءٌ رسمي، إحدى سكرتيراته الظريفات إلى أفضل مطعم في المدينة. أحب الفتيات الصغيرات الممشوقات القدود. كان يأخذ مكانه وإياها في المقعد الخلفي لسيارته المرسيدس الحكومية، يختلس النظر إليها بخبث متأملاً في ارتباك تصرفها ليرى أخيراً الابتسامة التي توحي بجهوزيتها. كان يأخذ يدها براحة يده، يستشعر الدفء الساري في ظهره ثم المنتشر في كيانه كلّه ووصولاً إلى اشتعال الدم في عروقه...

كانت اللحظات التالية لقطع مثل هذه الأحلام الأقسى. فكان يفتح عينيه واسعاً، ينظر فيما حوله، ثم يُطلق، بعد إدراكه الحالة، زفرة يأس... يغطي وجهه ويدفن رأسه في السرير. كان يرتجف خوفاً ورعباً لدى التفكير فيما ينتظره: لجوؤه إلى عالم الأحلام بدا غير ذي فائدة، لأنه يجد صعوبة في العودة إلى النوم. ونظراً للمراقبة الشديدة لا يستطيع حتى الحصول على حبة دواء منوّم، فكانوا حذرين خشية محاولته اللجوء إلى الانتحار.

حاول عبثاً طرد شبح المقصلة من رأسه. قادته مسالك النجاة التي تخيّلها، عبر دروب كثيرة، ينتظره في نهاية كل منها حبل المشنقة. كل رؤيا كانت أكثر واقعية من الأخرى. مع تقدم سير محاكمته أصبح مصيره محدداً أكثر. فتبارى الشهود في القضية في تقديم الروايات الأكثر فظاعة وقبحاً وإثارة.

في الأيام القليلة الأولى التي أعقبت اعتقاله كان مقتنعاً في أن أصدقاءَه المتنفذين سيستخدمون نفوذهم بكل طريقة ممكنة لتبرئته. كان متأكداً من أن المحكمة ستصرف النظر في الحادثة بسبب فقدان الأدلة. هذا ما يجب أن يحصل في يوم. فلا يُحتمل إحالة وزير إلى المشنقة على أساس اتهامات غير مثبتة. استخدم ألمع المحامين في البلاد وكان مستعداً لدفع أي شيء يطلبونه مقابل إطلاق سراحه من ذلك السجن الذي لا يُطاق ومن كوابيسه بخصوص المشنقة.

أحياناً كان يثور ضد الحزب والقيادة وضد كل نظام العدالة في البلاد والقوانين المفروضة من قبل البيض وضد كل شيء. لم يوفّر أحداً في ظل حالته الهيستيرية هذه. وكيف يمكن أن يغفلوا خدماته للحزب ولبلاده؟ جماعة ناكرة للجميل.

في الأزمنة الصعبة عندما كان الحزب في المعارضة كان درعاً حامياً لرفاقه. تحمل العذاب وقدّم تضحيات مرّة. لا، من المستحيل أن يغفلوها. ليس من المحتمل أن تسمح الإدارة الحالية، التي طالما ناضل من أجل أن تقف على قدميها، أن يُدان واحد من جماعتها، أن يُعذَّب ويُشنق بسبب أكل لحوم البشر والسحر.

لم يستطع فهم كيف يمكن للحزب أن يضحي به بهذه السهولة بسبب ارتكاب خطأ بسيط. هذا بالتأكيد اعتداء ومؤامرة من قبل المعارضة. لقد صار بذلك كبش فداء، وسيلة

لتحقيق غاية. العدالة تشير بالإصبع إلى الإدارة الحالية، التي بدورها تستخدمه وتستغله لتطهير الحزب من كل ما يصمُه.

من جانب آخر تخلى الحزب فعلاً عن قائده غير الجدير بسبب فعلته اللاإنسانية، وإن كان ـ حسب رأيه ـ بسبب إهماله وقلّة حصافته.

في بعض الأحيان كان يتعب من مغالبة تيار العدالة القوي، فيستسلم لبلواه. لعن اللحظة التي قرر فيها أن يُخضع مستقبله ومصيره للساحر جوجو من المجتمع السري. لكنه كان شاباً قليل الخبرة. أغراه المجد والمال والمنصب الهام، ودفعه كل ذلك للجوء إلى العالم السري. قبل أن يصبح وزيراً، عمل معلم مدرسة. كان حلمه الوحيد امتلاك سيارة. ولم يكن معه مبلغ مئة جنيه استرليني لدفعها فوراً. لم يلقَ من زملائه الأكثر خبرة ودراية نصحاً، فكلّهم كانوا منغمسين، أكثر منه، في توقهم للسلطة والمجد.

وجهاء قريته وأبناء قبيلته هم الذين أرادوه أن يبقى في الواجهة. فطبقاً للإشاعات المتواترة داخل دوائر الحكومة كانت ستحصل بعض التغييرات في الحكومة. وهو ايضاً أراد المحافظة على وضعه.

لم يستطع الوزير السابق بومبالي تحمل نقد كثير. أحس نفسه غاضباً ومغتاظاً من الوضع. ولا توجد شخصية سياسية واحدة في كل أفريقيا السوداء ترضى بترك السلطة من خلال أصوات الناس الذين انتخبوه بحرية. فعندما يصبحون في

السلطة يسعون للبقاء فيها والتشبث بكرسي المنصب. وهو لن يكون استثناء من تلك القاعدة. كلا، دعهم يفتشوا عن آخر لتمثيل هذا الاستثناء. فالحكمة تقول: "الصعود سهل، والنزول هو الصعب".

لكنه لم يستطع حتى الآن فهم لماذا يتصرف أصدقاؤه بهذه السذاجة. تخلّوا عنه وأسلموه لفخ العدالة. أي نوع من العدالة يتوقعونه من قضاة (كريّو) هؤلاء الفاسدين؟ من هؤلاء سليلي العبيد السابقين؟

إن ما يُعتبر جريمة وفق التشريع الإنكليزي كان مجرد طقس عملي عادي يحترمه الأفريقي. لماذا يريدون شنقه بتهمة ممارسة أعرافه والمحافظة على تقاليده؟ لقد قدّم البشر بني جنسهم قرابين للآلهة على مدى قرون. والآن يمنع هؤلاء الأجانب، بقوانينهم وقضاتهم البرجوازيين من قبيلة (كريّو)، الإنسان الأفريقي من ممارسة طقوسه السحرية. عدا ذلك، إذا كان قد أكل لحماً بشرياً، فإنه دفع غالياً لقاء ذلك.

أكثر ما كان يثيره ويُفقده صوابه هو تذكّر (مامبي). كان ضحية تصرف مامبي الأخرق وطمعه. كان مامبي الوسيط بينه وبين زوج المرأة - الضحية. هذا الأخير لم يحافظ على السر. كان بإمكان بومبالي نكران كل ما أراد، لكن الشاهد روى كل شيء.

كان في بعض الأوقات، وتحت ثقل إحساسه بالانتقام، يفكر في تجاهل الموت معترفاً بكل شيء وقاذفاً قناعاته وفلسفته في وجوه أعضاء المحكمة. تلخّصت الحقيقة المحزنة في أن فهمهم

لكلمة "عدالة" كانت بعيدة أميالاً عن فهمه هو. لكنه، لسوء الحظ، وحيد في مقاومة التيار ومقيّد بالأصفاد. أيجوز أن ينسفوا بين عشية وضحاها أعرافاً ومعتقدات عمرها قرون؟.

هذه المحاكمة ليست له وحده. إنها محاكمة لجميع بني جلدته. تقاليدهم القبلية، ماضيهم، وحتى حاضرهم - كل ذلك تحت المحاكمة الآن؟ ليس ذاهباً وحده إلى المشنقة. فثمة آلاف أمثاله أكلوا لحماً بشرياً لأسباب مختلفة أثناء طقوس سرية. فعلتُه طفت على السطح بسبب عدم كفاءة بامبي.

بدأت جريمة الوزير السابق بومبالي ومحاكمته تكتسب أهمية وقيمة كونيتين في ذهنه. فهو يغادر هذا العالم بوصفه شهيداً، ضحية قوانين مستوردة. يجب أن يُحاكم الأفارقة صريحو النسب أمثاله وفق القوانين القبلية. وعلى هذا الأساس رفض مقابلة المبشّر الديني الذي استقدموه إلى السجن قبيل تنفيذ حكم الإعدام، وذلك طبقاً لقوانين الإنسان الأبيض. الآن يحاول هذا الإنسان الأبيض تهدئته وتنويمه بكلمات معسولة من أجل جعل انتقاله من الحياة إلى الموت سهل الاحتمال. قرأ شعور الشفقة المضمر في عينيّ رجل الدين الزرقاوين. عرف هؤلاء المنافقين جيداً. فقد تعلّم في مدارسهم. وخلال وجوده في منصبه الوزاري لم يتجرأ هذا المبشر على النظر إليه في عينيه عندما كان يأتي إلى الوزارة حاملاً طلباً ما.

مثل وحش في قفص أطلق بومبالي صرخة ورجّ الشبك الحديدي السميك لزنزانته بكل قوته إلى أن أعيته ذراعاه تماماً.

بادر المبشرَ بنظرة ازدراء. قرر ألا يستسلم له. لن يمنحه فرصة إضافة إكليل غار إلى مجده من خلال إضافة مهتدٍ جديد إلى دينه، هو الوزير السابق المتهم بأكل لحم البشر. لن يمنح الكاهن متعة الركوع أمامه على ركبتيه في توبة.

لو أن الطقس أُعد بدقة لما انتهى هكذا على نحو كارثي. كان قد بدأ الأمرَ مع توقعات عظيمة. لكن الحقيقة أن الرجل الأسود منظّم فاشل، وهذه تراجيديا وطنية عامة. فطقس عظيم مثل أكل لحم البشر لم يكن شيئاً ما تافهاً يجوز التعامل معه ببساطة. كان من الضروري التخطيط له تفصيلياً وعدم ترك أي شيء للمصادفات. هو، كرجل مسؤول، بقي على مسافة بدايةً، ولم يشرف على كل التفاصيل. فليس مناسباً لواحد في مثل منصبه أن يتفاوض مع أناس عاديين بخصوص مثل هذه الأمور.

استخدم أصدقاؤه اسمه بشأن أمور شخصية لهم. كان على علم بذلك ولم يشكُ أو يتذمر يوماً، بل على العكس شعر إزاء ذلك بزهو. لكن لم يدُرْ في خلده أن يخطئ مرافقه الخاص بامبي ويذكر أثناء تفاوضه بالنيابة عن الساحر جوجو والوزير... لتدبير ضحية لتنفيذ الطقس المرتقب. تفاوض بامبي مع شخص تافه عاطل عن العمل اسمه (سامورا) عنده زوجة حامل في شهرها السادس.

رأى جوجو أن المرأة تلبي متطلبات الطقس. وافق سامورا على بيع زوجته بسهولة كما يوافق امرؤ على بيع عنزة لديه.

طلب مبلغ خمسة عشر جنيهاً استرلينياً ووافق الطرفان على ذلك. توقف بامبي، وقد سُر بإتمام الصفقة، قرب خمّارة مجاورة وعرض على ساموراً أن يشربا نخب اتفاقهما.

لاحقاً توجه الوسيطان إلى مكان ناءٍ ورتّبا خطة تنفيذ عمليتهما، ثم أعطى بامبي ساموراً خمسة جنيهات استرلينية مقدماً.

في اليوم المحدد قاد ساموراً زوجته إلى الغابة. لم يلاحظ أن (كادياتو) ابنة زوجته من زواج سابق ذات السبعة أعوام تبعتهما. توغلا بصمت في عمق الغابة الكثيفة. فجأة انقضّ الساحر جوجو ومساعده /القاتل على المرأة المسكينة من مخبئهما ونفذا المهمة. غادر ساموراً الموقع معتبراً أن مهمته قد انتهت دون انتظار بدء الطقس. غادر بسرعة راضياً.

اقتربت البنت الصغيرة كادياتو مذعورة وحذرة من الجماعة. لم تتمالك نفسها أمام مرأى أمها مطروحة على الأرض أمام الساحر جوجو، فأطلقت صرخة رعب معكرة للحظة جو الطقس الذي يتطلب الهدوء والصمت، عقب ذلك أسكت رجال جوجو الفتاة إلى الأبد.

في تلك الأثناء، وفي ظل نظرة رعب على المشهد من قبل الوزير، اقتطع جوجو رحم المرأة. انتزع قلب الجنين ابن الستة أشهر وأطعمه نيئاً للوزير، الذي صار بذلك سوبرماناً وغلاّباً لا يُقهر.

كان يمكن لهذه الحادثة أن تُدفن في أرضها لو لم يرفض مامبي الجشع دفع العشر جنيهات الباقية لساموراً. لقد كلّف هذا الخطأ بومبالي غالياً، فقصد ساموراً الشرطة في محاولة

ساذجة لاستيفاء بقية المبلغ المالي من خلال السلطات. فكّر رجال الشرطة أن المسألة لا تعدو كونها نكتة غبية. بعد ذلك بدؤوا يشكون أنَّ ثمة سلوكاً ما لا أخلاقياً.

بدورها بادرت أخت الضحية إلى إخبار الشرطة باختفاء أختها. وهنا اتخذت القضية منعطفاً معقداً وبدأت الحقيقة تظهر إلى العلن. لكن، ولأن اسم مسؤول حكومي ارتبط بالقضية، اقتضى الأمر إحاطتها بالسرية لبعض الوقت إلى حين اعتراف بامبي نفسه تحت التهديد بالضرب. بعد ذلك أحيطت الدوائر الحكومية العليا علماً بالقضية.

أخذت أذرع العدالة الحديدية مجراها.

وذات صباح ماطر، بعد وقت قصير من شروق الشمس، نُصبت ست مشانق خلف جدار السجن العالي لتعليق قتلةٍ من آكلي لحوم بشر، وكان وزير التعليم السابق أصغرهم سناً.

# المرشَّح

## The Candidate

ليس من الحكمة التدخل في نزاع بين صيادين متعادلي القوة.

أصبحنا مع مرور السنين جزءاً من قرية يعيش أهلها على الصيد البحري، حتى صرنا ننادي كل واحد باسمه، بدءاً من الغلمان شبه العراة ووصولاً إلى الوجهاء المتنفّذين.

لم يوفّر جنون القرن العشرين قريتنا الاستوائية هذه. فقد جذبت المدينة البحرية، الناشئة هنا على الشاطئ، بنمط حياتها البسيط وصفاء جوّها، الزوار. كانت زوجتي وأنا أيضاً من بين المعجبين بها. تعلّقنا بولع عظيم بمسكننا الصغير الكائن في ظاهر القرية. رأينا أننا قد عثرنا على جنّة صغيرة نظراً للطقس المعتدل هنا على مدار السنة.

لكن حتى الحياة في الجنة ليست خلواً من الحقد والحسد وروح الانتقام. فتميزت إقامتنا في القرية خلال السنوات العشر بحوادث كثيرة انطبعت في ذاكرتنا. النزاع المقصود الذي سأحدثكم عنه فاق ما عداه في تعقيده.

اصبح الولد جيمي، المنتمي إلى هذه القرية والمذكور سابقاً في إحدى قصصي، رجلاً. وبصرف النظر عن أنه يعيش مع خليلة له اسمها (كيكاي)، كانت عنده عشيقة أو عشيقتان أخريان. كان جيمي وكيلنا المشرف على بيتنا المبني حديثاً، وعمل أيضاً في الصيد البحري مثل معظم سكان القرية من الذكور. كان يعلّق مفتاح البيت في رقبته مثل الجوهرة، واعتاد، عندما يذهب أزواج عشيقاته إلى البحر لتدبّر أرزاقهم، التسلل إلى البيت مع إحداهن لتبادل الحب.

في إحدى المرات لم يكن النزاع الذي وجد جيمي نفسه متورطاً فيه ذا علاقة بزوج مخدوع. فذات يوم أحد صباحاً ما أن أوقفتُ السيارة بجانب البيت الصغير المبني على الطراز المحلّي حتى اندفع نحوي مثل وحش بري صائحاً: "باه، إن أعطيت المدام هدية لن أبقى خادماً لك". ثم أدار وجهه الغاضب متجهاً لفتح صندوق السيارة لإخراج مكعبات الثلج والمواد التموينية الأخرى، وتبعه (هامبا) مساعده الوفي.

قالت زوجتي: ـ "يبدو أن ثمّة نزاعاً جديداً. ابتعدنا عن المدينة نشداناً للراحة قليلاً، لكننا نستمع هنا إلى جدالاتهم التي لا تنتهي".

كانت محقة. لكني فكرت دوماً أن لا فائدة من النقاش في هذا الأمر. لم أُحب الشكوى. ذات يوم سأدفن في حفرة بعمق ستة أقدام، بيد أني سأظل، حتى من تحت الأرض، أُصغي لآلام الناس. فلا يتعلق الأمر هنا بالمصير، بل بالإحساس بالآخرين.

انتظرتُ جيمي قليلاً كي يهدأ. فخلف مظهره الجلف قلب رقيق. اقترب مني وحاول الابتسام. لكن الابتسامة تلاشت في ملامح وجهه القاسية. منذ ذلك اليوم الذي أخذناه معنا إلى المدينة وعلّمناه مهنة تطور وشبّ إنساناً طيباً.

قال لي مطرقاً في الأرض:

- باه، المرأة العمدة تريد أن تضعني في السجن. لا أفهم ماذا تريد مني هذه المرأة.

قلتُ له قاصداً إفهامه عدم رضاي:

- المدام امرأة لطيفة وصديقة حميمة، وأنت ولد. لا أفكر أنها ستسيء معاملتك دون سبب.

- باه، هذا ما يقلقني أكثر من أي شيء آخر، هي تعرف أني خادمك، ولذا تتهمني.

- هل فعلت مصادفة شيئاً مع إحدى بنات القرية ثم كبر بطنها يا جيمي؟

بدا عليه، الإحباط. نظر إليّ بلوم. خاب أمله فيَّ بوضوح، لأني لم آخذ الأمر بالجد الكافي، فأضفت على الفور:

- ولم تسرق شيئاً، هل سرقت؟ قل لي إن كنت مخطئاً.

لم نصل إلى شيء. هزّ رأسه يميناً وشمالاً. حاولتُ مقاربة الموضوع من زاوية جديدة مطعماً كلامي ببعض المزاح:

- أنا متأكد من أن يديك لم تقربا شبكة صيّاد.

كنتُ قد صرتُ خبيراً بأسلوب حديث الناس المحليين على مبدأ أعطِ وخذْ. فهم لا يقاربون أي موضوع بشكل مباشر.

بدأ جيمي يشرح الأمر: ـ "هذه العجوز الخرفة أحالتني إلى الشرطة. ذات مرة قبضوا رشوة من أبي أربع ليونات (مبلغ كبير بالنسبة لأفريقي بسيط). أنت تعرف أن رجال الشرطة عندنا سيئوون..."، وناشدني قائلاً: "أرجوك لا تَعدّ المدام بإعطائها صفيحاً لسقف بيتها. دعها تنتقع بماء المطر...".

من الواضح أنه لم يكن مستعداً للإفصاح عن أي شيء حول حادثة السجن ما لم يصل إلى ذلك غريزياً، فباح أخيراً:

- اسأل هامبا إن كنت لا تصدقني. المدام تتهمني بأنني أحاول تسميم كل القرية.

- هذا هراء، أمر عجيب. ماذا ستجني من تسميم القرية؟ آمل ألاّ تكون تمارس السحر في أوقات فراغك.

- لا، باه. أنا لا أكذب. ما الذي لم يتقوّلوه. أنا اصطدت تمساحاً صغيراً فقط.

أردته أن يعرف أني افهم عادات وأعراف الناس المحليين فسألته:

- وهل أخذت كيساً من سمّ هذا الحيوان إلى المدام؟

- باه، هذا ذنبي! أقسم بالله أني نسيت المدام. بعد أن قتلت التمساح قطّعته إلى قطع وأرسلته إلى كيكاي لتطبخ لنا حساء بيبي اللذيذ، لكن لم تمر ساعة حتى دقوا ناقوس القرية. لم أهتم، فكّرت أن أهل القرية يجتمعون لسبب آخر. كنّا جائعين، وكانت رائحة الحساء شهية. استدعاني مجلس القرية. كانت

المدام غاضبة مني وسألتني لماذا لم أرسل لها كيساً من السم، ثم بدأ رجال القرية بتهديدي واستدعوا الشرطة للقبض عليّ.

صمت جيمي. وهو لم يكن كثير الكلام. تحوّل الأمر إلى مسألة جدية، ففي هذه الأيام الحاسمة إذا ما مات أحد القرويين لأي سبب سيُتهم جيمي، وسيكون من المستحيل إقناع السكان أن لا علاقة لجيمي بالجريمة.

وضعتُ يدي على كتفه في إشارة تعاطف معه. تأثرتُ لحاله. كانت هذه القرية ما زالت غارقة في ظلام القرون، فيما يشبه تقاليد العصر الحجري. كنّا البيض الأوائل اللذين بنوا منتجعاً صغيراً بجانب البحر، وعملنا ما بوسعنا لمراعاة الطراز المعماري المحلي عندما بنينا كوخنا، وكي لا نشوّه المنظر الطبيعي البديع. كانت المرأة العمدة إنسانة طيبة، وربما لولا مساعدتها لما استطعنا حتى شراء قطعة الأرض التي أقمنا عليها البناء.

في أفريقيا تشكل عملية شراء أرض بمجموعها طقساً كاملاً بكل ما في الكلمة من معنى. فعندما أصبحتُ وزوجتي جاهزين لشراء قطعة الأرض رافقنا صديق محلي إلى العمدة لإتمام الصفقة التي تنتهي عادة بطقس المصافحة بالأيدي بين طرفي العملية على نيّة التوفيق. وطبقاً للعرف شكرنا المرأة بتقديم هدايا متنوعة لها ـ مشروبات، ملابس وبعض النقود. بعد ذلك توجهنا مع حشد من قرويين شبه عراة لتحديد الأرض المعنية. حدّدت المدام حدود قطعة أرضنا على النحو التالي: "من تلك

الشجرة الكبيرة إلى شجرة جوز الهند هذه، ومن ذلك الطريق إلى البحر". وهكذا دون خارطة، أو حضور ممثلٍ للبلدية.

بعد أن حصلنا على مباركة المرأة العمدة كان كل ما تبقى علينا توقيع الأوراق بحضور الشهود ودفع الثمن للمالك. لكن قبل ذلك كان ثمة عائق تقني يجب تجاوزه. وهكذا اجتمع كبار رجال القرية لتقرير من يكون مالك الأرض. اتفقوا على أن رجلاً من قرية مجاورة يُدعى (كونكوني) قد قدم إلى هذه الأنحاء قبل خمسين أو مائة سنة وغرس هنا بعض أشجار جوز الهند. وعلى هذا الأساس تم استدعاء حفيده للتفاوض بشأن البيع.

تأخر وصول كونكوني الحفيد. كان هذا، على ما بدا، مشغولاً، رجلاً ذا مسؤوليات! حلّ بنا جميعاً النعاس بعد تناول قدرٍ من الجعة. قدّمتُ للمدام ولسكرتيرها وللوسيط (بيابيتي) ولوالد جيمي سجائر. لم تشعل المدام سيجارتها، لكنها احتفظت بها على كل حال. خلال ذلك الوقت كانت عيناي مثبتتين على الطريق. كنت قلقاً بشأن إتمام الصفقة والبدء بالبناء. لكن لا أحد من الجماعة اشتكى من تأخر كونكوني.

كانت المرأة العمدة شبه عارية، وفي حوالي الستين من العمر. كان الخاتم الرسمي للقرية، الذي طلبنا من أحد الحرفيين في بيروت صنعه، معلقاً في رقبتها ومتدلياً بين ثدييها الضخمين، وقد أعطاها ذلك هيبة سلطوية. قلتُ في نفسي، ربما كانت فيما مضى جميلة. نظرتُ إلى صدرها. بدا فضولي، الذي

لاحظتُه، طبيعياً من قبلها. وعجبتُ كم من الأفواه تغذى من هذين الثديين المتهدلين.

- ها هو كونكوني قد وصل. صاحوا جميعاً. حوّلتُ نظري عن ثديي المرأة العمدة باتجاه الطريق الذي تحفّ به الشجيرات متوقعاً أن أسمع ضجيج سيارة قادمة. لكن لاحظتُ، بدلاً من ذلك، أن جميع العيون شاخصة باتجاه البحر. وفعلاً كان ثمّة قارب يتهادى بجانب الشاطئ. نزل مالك الأرض من القارب. كان عارياً إلاّ من قطعة قماش تغطي أعضاءه التناسلية. رحّبنا به.

كان كونكوني من النمط الكتوم. أحب إحاطة أموره بستارٍ من الغموض. اتجهنا إلى غابة مجاورة وأنجزنا الصفقة بعد مراسم طقوسية طويلة.

بعد قرابة أسبوع استلمتُ رسالة من العمدة. جاء في الرسالة ما يلي: "بعد خمسة أيام سنُحضر من عند (بوندو) بناتنا الصغيرات. العمدة تفي بالوعد». سأعطيك فتاة جميلة جميلة. رجال القرية ينتظرون هذا اليوم. لا تنس أن ترسل لي بعض النقود مع حامل رسالتي لقاء الزوجة الجديدة".

مرةً في العام تؤخذ الفتيات اللواتي وصلْن سنّ البلوغ إلى مكان منعزل في الأحراج. وهناك تُجرى "سيدات" منظمة (بوندو) السرية طقوس ختان الفتيات، وبذا يُتاح لهنّ الانخراط في حياة البالغين سنّ الرشد. وما أن تخرج هذه الصغيرات من هذا المكان المنعزل حتى تتخاطفهنّ الأيدي مثل أرغفة الخبز الطرية الخارجة للتوّ من الفرن.

نوتْ المدام العمدة منذ مدّة أن تشرّفني بواحدة من تلك الفتيات. وافقتُها في وقت ما مازحاً كي لا أبدو في نظرها بسيطاً جاهلاً. أما هي فكانت جادة تماماً في قولها.

لم أحضر، مع الأسف، طقس توزيع الفتيات رافضاً متعة إحضار عروس صغيرة طرية العود إلى البيت. أما كيفية استقبال زوجتي المحتمل لها فأستطيع فقط المجازفة بتخمينه.

* * *

تكمن المشكلة في أنّ المدام العمدة لم تنس بسهولة رفضي المزعج تلبية رغبتها. وفي تلك الأثناء كان جيمي يواجه تهمة خطيرة صمّمت إزاءها على مساعدته في حفظ كرامته. وهكذا أمرتُه أن يأتي معي إلى بيت العمدة من أجل تنقية الجو مرة وحتى النهاية. وافقني الرأي ورتّبت الأمر مع المدام. لكنها رفضتْ بحزم عقد اللقاء في بيتها الواقع في مركز القرية. كان عندها فكرة أفضل.

هكذا عدنا إلى الغابة من جديد... جلسنا على الأرض في ظل شجرة. كان بصحبة المدام فتاة يافعة لا يتعدى عمرها أربع عشرة سنة. كانت شبه عارية وبنهدين بهيين. كلّمتْ العمدة الفتاة بلغة (ليمبا) المحلية شيئاً ما بصيغة موارية ابتسم إزاءها جيمي أيضاً. تبادلنا الهدايا المناسبة. قالت لي المدام مشيرة بإصبعها إلى الفتاة:

- أنا بصفتي عمدة هذه القرية لن أنسى ما حاولتَ تقديمه من خدمة لنا. أمنيتي الوحيدة أن تتزوج هذه البنت وتنجب لقريتنا كثيراً من الأطفال.

لم تنسَ إهمالي حضور طقس (بوندو) لاستلام العروس المقرّرة لي. شُدهتُ في البداية، لكن فهمتُ أخيراً لماذا ألحّت على أن يكون اللقاء في الغابة. أرادت أن تنجز مهمة (بوندو) غير المكتملة. قلتُ لها وأخرجت في الوقت ذاته ما كان في جيبي من نقود وأعطيتها للفتاة:

- أحبّ كل أطفال القرية مثل أطفالي. لكنّ عرضك هذا لا يتوافق مع قوانيننا".

هنا التفتت العمدة إلى جيمي وقالت:

- كيف يمكن رمي سيد محترم كهذا في السجن؟ أرادت أن تذكّر بشكل غير مباشر بسلطتها الرفيعة فأضافت:

- العمدة يعني العمدة. ويتوجب عليه الاضطلاع بمسؤولياته. يا سيد بنارتشوكو (نادته باسمه المحلي) لا يحق لأحد خرق القانون. أنت اصطدت تمساحاً فأكلته وحدك. لم تحسب حساباً للعمدة التي ترعى مصالح أهل القرية في الليل والنهار.

فجأة أصبح كل شيء مفهوماً، ولا سيّما بعد أن أضافت قائلةً:

- ماذا لو أنك قمت بما يفرضه عليك القانون ولم تنس إعطاء المرأة العمدة كيساً من لحم التمساح!

لم أكن أعلم أن لحم التمساح لذيذ إلى هذه الدرجة التي جعلت العمدة تبدو في صورة هزلية. لكن كان خلف حادثة التمساح عداء كامن تجاه جيمي تحس به هي من خلال تكبّره وأنانيته بالمقارنة مع القرويين الآخرين.

تدريجياً أدركتُ أننا، نحن الأجانب، ربّما كنّا مخطئين، فالمقاصد النبيلة قد تقود أحياناً إلى نتاج سلبية، تغيّر مسار الحياة بشكل كامل وتخلّف أثراً يتعذر إصلاحه. فكان الصيد البحري الخيار الوحيد أمام سكان القرية، وهذا سبيل كفيل بتأبيد الفقر، ولذا حاولنا تقديم فرصة أفضل لعاملنا جيمي. على هذا الأساس أخذناه معنا إلى المدينة ودرّبناه على العمل في ورشاتنا. لكن كان واضحاً تماماً أنه لا يملك أي ميل باتجاه امتلاك مهارات تقنية، وهذا برغم جهودٍ مكثّفة من قبله ومن قبلنا نحن. سرعان ما تخلّى عن هذا الخيار. قضى العطل الأسبوعية في القرية، وانتحل الأعذار للتغيّب أيام الاثنين ومدّد غيابه لأيام دون انقطاع.

لم أستطع لومه على سلوكه. فنحن اقتلعناه دونما شفقة من بيئته الرعوية العزيزة على قلبه ورميناه في صخب ودوامة القرن العشرين. افتقد حفيف أشجار جوز الهند ونسيم المحيط العليل الذي فُطر عليه. اشتاق إلى رمال الشواطئ الذهبية، إلى موسيقا الأمواج الهادرة وهي تتكسَّر على الصخور في الليالي المنعشة. هيّج كل ذلك مشاعره أثناء غيابه في عطلة نهاية الأسبوع ودفعه لعدم العودة إلى المدينة. أخيراً فكّرتُ في نفسي

متسائلاً ـ لماذا نجبره على حياة لم يُخلق لها ولا يتمناها؟ ومن قال إنّ الصياد وحياته أقل أهمية ومعنى من الميكانيكي؟ إذن لا طائل أبداً من الاستمرار في هذا الخيار، ومن الإجرام عدم الإقلاع عنه.

حالما تمكّن جيمي من توفير مبلغ كافٍ لشراء قارب صغير وشبكة قفل عائداً إلى قريته الحبيبة. لكنّه، كابن قرية، أخذ معه أيضاً في هذه الحالة تصوراً جديداً اكتسبه من خلال معايشته المدينة. وعلى هذا الأساس يبدو أن المرأة العمدة قد ساورها خوف من تحدّي سلطتها. خشيتْ أن يضع (بنارتشوكو) عينه ذات يوم على منصب العمدة.

وهكذا اهتبلتْ المدام الفرصة السانحة لتقويض منزلته من خلال إثارة شكوك الصيادين البسطاء الذين تعشّش الأوهام والخرافات في أذهانهم. وفي هذا الجو المسموم تمكّن الخصوم من النيل من جيمي بصفته مرشحاً محتملاً لمركز العمدة، وكسب جولة ضده.

لكن استطاع جيمي الصمود أمام هجوم المدام. وجاءت حادثة أخرى في الوقت المناسب زادته قوّة... فجأة قدّم ممثلو شركة إعلان أمريكية واختاروا كوخنا الكائن في موقع متقدم على الشاطئ خلفية لتصويرهم. وهكذا التقطوا آلاف الصور الإعلانية لنساء عاريات أمام مدخل بيتنا مباشرة. عَمَدَ عاملنا جيمي، إلى جانب الاستمتاع بمرأى الغانيات البيض العاريات، إلى اتخاذ دور البطل في بعض الصور. بدا شاباً وسيماً وجذّاباً.

بعد مضي بضعة أشهر وصلتْ القرية نسخٌ من مجلة أزياء ملوّنة. برزت على غلاف المجلة صورة لغانية أمريكية ساحرة الجمال في قارب وإلى جانبها صيّاد بارز العضلات هو جيمي.

احتفظ جيمي بهذه المجلة الثمينة كما لو كانت أثراً مقدّساً. فمن يعرف، ربّما تصبح معينةً له في حملة انتخابية.

# الإصبع

## The Finger

أرحتُ على راحة يدي برفق إصبعاً نحيلة لفتاة سوداء، إصبعاً تشبه من النظرة الأولى سيجاراً استهلك نصفه. ارتعش قلبي خوفاً لدى التفكير باحتمال أن تؤذي حركة غير مقصودة من يدي فجأة الفتاة الرقيقة صاحبة الإصبع. تفحّصتُ الإصبع بعناية متحاشياً في الوقت ذاته أن يراني أحد من عمالي المحليين أو زبائني. تطور في ظلٍّ وجلي، الذي تناقص تدريجياً وببطء، شعور حميم بيننا. ومع مرور الأيام حاولت تكوين صورة متخيلة لهذه الحسناء خليةً خلية وقطعة قطعة منطلقاً من هذه السبّابة اليمنى ومن الوجه الجميل للصورة في النعي المنشور في الصحيفة.

أبلغتني سكرتيرتي الكسولة بنبرتها الرتيبة. بحضور زبون صاخب، مرَّ بعضٌ من وقت حتى تمكنتُ من الانفصال عن عالم الحلم الذي خلقته حول هذه الإصبع، ثم سرعان ما خبأتُها في علبة سجائر (روثمان) فارغة.

كان (هاري) هو من عثر على الإصبع عندما عاين سيارة الخلاسي - (الفولكسواغن) المحطمة. كان خاتم الخطوبة بالماسة الصغيرة الجميلة ملتصقاً بقوة بالإصبع. أحدث العمال المحليون عند مدخل مقر عملنا ضوضاء كانت أشبه بشجار هادر تخللته صرخات عنيفة.

كانت سيارة (الفولكس) في ورشتنا منذ أسبوعين. لكن منعتني رائحة الدم الجاف ومنظر الحطام من معاينتها وتفتيشها بدقة. كان من شأن عبارة "فَقْد كلّي" المكتوبة بحبر أحمر على صفحة تقدير الخسائر، أن ترضي أية شركة تأمين. كذلك عمالي، الذين يندفعون بشكل طبيعي للعمل على مثل هذه السيارات "المحطمة كلياً"، تجنبوا غريزياً هذه السيارة، كما لو كانت قوة غامضة ما تدفعهم بعيداً عنها.

حصلت حادثة الاصطدام صباح يوم الأحد في الساعات الأولى من النهار. أتينا إلى الورشة بعد القدّاس لمقابلة الأم الإفريقية السوداء للخلاسي مالك السيارة. كانت الرافعة قد سحبت دون إبطاء سيارة الفولكس، التي تحوّلت بفعل الحادث إلى كومة حطام من حديد، إلى فناء الورشة. بدلاً من إلقائها التحية الاعتيادية بادرتني هذه المرأة السوداء غاضبة: -"هذه هي السيارة التي بعتنا إياها يا سيّد...

كانت السيارة مباعة فعلاً من قبلنا، لكني لم أفهم بأي شيء نحن متهمون. بدا من خلال الدم المسفوح وحالة السيارة أن الصدمة قاتلة. لكن حضور أم الخلاسي جعلني أتوقع الأسوأ.

كان لها كل الحق، كأم، أن تغضب. لكنها وجّهت غضبها هذه المرة باتجاه سائقي الشاحنات: "قل لي يا سيد، فأنت تعرف كم ضحّيتُ من أجل أن أشتري لابني الوحيد سيارة. فلأنّ سائقي مدينتنا لا يحسنون القيادة، وحتى لا يعرفون أنه يجب ركن هذه الكتل الحديدية التي تسمى شاحنات على جانب الطريق... كاد أولاد الحرام هؤلاء أن يقتلوا ابني".

كان برفقتها شاب انطبقت عليه تماماً كل مواصفات الديّوث. قاطعها قائلاً: ـ"أشعر بالأسف فعلاً يا أخت*. لا تغضبي، فماذا تتوقعين من سائقين يشترون، إجازات القيادة كما يشترون زوجي أحذية! عندما يحسوّن بحرارة بضع جنيهات إسترلينية في جيوبهم يرمون بأنفسهم في حمأة الفسوق. النساء والسُكر يدمران الأفارقة". بعدئذٍ راح يتملقها مع حركات من كتفيه إلى أعلى وإلى أسفل، ثم توقف كما بدأ.

ماذا عن الولد الخلاسي؟

أمّنت هذه المرأة الإفريقية، أم الخلاسي للجنود الأجانب المتعة الجنسية والسلوى عندما عملت في تنظيف ثكناتهم، وغدت في تلك الأيام الصعبة عند نهاية الحرب دواءً لتبديد سأمهم. ومن ثم... ولد خلاسي.

---

(*) المرأة المخاطبة أم الخلاسي تعمل ممرضة (sister)، وهذا سبب مناداتها من قبله "يا أخت" - المترجم.

قبل سفرها إلى إنكلترا لدراسة التمريض وبعد عودتها تزوجت مرتين لم تُوفّق فيهما من رجلين من بني جلدتها. أخيراً أصبحت رئيسة ممرضات في المستشفى الحكومي، موزعة ما تبقى من جاذبيتها الأنثوية بين قاضٍ كبير السن وشاب ديوث. أحبت ابنها الخلاسي بعمقٍ وتفانٍ. كان هدفها في الحياة إرضاء كل نزوة له. يبدو أنها وجدت في ذلك عزاءً من حبها المثالي المفقود والمضمر لأبيه الأوروبي. أتذكر كم كانت فخورة ومغمورة بالعاطفة عندما جلست بجانب ابنها وهو يقود سيارته.

لكن الآن لا أرى سوى حطامين: أم و"فوكلس". أميل للاعتقاد أنه في لحظة طيش، في طرفة عين أصبحت السيارة نعشاً على عجلات.

لكن لماذا أبقت موت صديقة ابنها في الحادث سراً؟ هل كان ذلك نتيجة خلاف طبيعي نابع من نفور طبيعي قام بينهما؟ أم أن صدمة رؤية ابنها منتزعاً من براثن الموت جعلتها فاقدة الإحساس تجاه ألم أم أخرى؟

قد تحاول جهدها أن تبقي الأمر سراً. لكننا قرأنا تفاصيل الحادث في صحف يوم الاثنين مع صورة للفتاة المتوفاة بجانب المقالة الصحفية. علاوة على ذلك سمعنا تصريحات من قبل زبائننا الأفارقة يتهمون فيها الخلاسي صاحب السيارة بالطيش: "لعنه الله، إنه قاتل. هاهو، حتى قبل أن ينسى موت ضحيته الأخرى، يرتكب جريمة أخرى. من المحتمل أن يقول

الناس إن القاضي نسيبهم. مدينتنا ليست كبيرة، والناس هنا يعرف بعضهم بعضاً جيداً".

خلال ممارستي للمهنة شهدتُ - أكثر من طبيب جرّاح - دماً مسفوكاً وأعضاء مقطّعة. لكني ندمت على قبول هذه "الفولكس" المحطمة في ورشتنا.

أراني من جديد أكرر النظر إلى هذه الصورة، كما لو أن قوة غير مرئية تشد انتباهي إليها. أحدث الدفء البادي في عينيها ضعفاً في قواي. هاقد حدث كل ذلك وانتهى قبل ست وثلاثين ساعة، جسدها الآن ممدّدٌ في زاوية من مستودع الجثث، باردٌ مثل الثلج. كم هي قصيرةٌ أحياناً اللحظات الفاصلة بين حالة وأخرى... لماذا كل هذا الضلال؟

سترنا "الفولكس" بغطاء نايلوني رمادي اتقاءً لنظرات الفضوليين. فاقمت الشمس الإفريقية رائحة الدم. كانت المدينة كلها تستعد لدفن خطيبة الخلاسي. أجبر أصدقاؤها الجامعة على إغلاق أبوابها حداداً في ذلك اليوم.

تلاشت تعليقات الزُبن بخصوص طيش الخلاسي تدريجياً. وغدت "الفولكس" المحطمة شيئاً منسياً إلى حين وضعت في العرض للبيع. رفع عمال الورشة بتهيب الغطاء النايلوني عنها. كانت رائحة الدم قد تلاشت نهائياً قبل فترة من ذلك، في حين تحولت آثاره إلى بقعٍ سود.

تردد الراغبون في الشراء كل يوم إلى الورشة، لكن أعدادهم تناقصت تدريجياً. اتصل الخلاسي بالهاتف يومياً، كان قلقاً

بخصوص سيارته التي أراد بيعها سريعاً. بدأنا نشعر أنفسنا أشبه بأهل فتاة مدللة، قلقين بشأن تزويجها، من أجل تخليصهم من وجع الرأس.

قلنا للزُبن ما معناه: "أنتم تشترون كفناً. ما الفرق إن كان الموديل قديماً؟" كان الخلاسي حراً طليقاً معتبراً نفسه غير مذنب في شيء، لكنه لم يظهر للعيان. لم يدفع لنا الفاتورة المترتبة على قطر السيارة وإيداعها في الكراج. في تلك الأثناء راجت إشاعات بخصوص "الإصبع" في أنحاء المدينة، وبدا أن عمال الورشة هم المسؤولون عن تسريبها.

ثمة أسطورة قديمة بخصوص أعضاء الجسد المقطوعة تحظى بالاحترام ومتجذرة بعمق في وعي الأفارقة وذات تأثير على هؤلاء المواطنين المحليين. عزا خيالهم الواسع قوى خارقة لهذه الإصبع في حال وقوعها بين يدي الساحر جوجو. عدا ذلك، فهذه إصبع شابة، ويمكن بذلك أن تفعل العجائب. يمكن أن تغدو علاجاً عجيباً لرجولة مفقودة عند آخرين. انطلاقاً من ذلك شعرت بالقلق إزاء ما يمكن أن تسببه لي هذه الإصبع من عواقب وخيمة، فوضعتها في درج مكتبي المقفل.

أصبح مركز عملنا أشبه بمكان للحج. خلق حضور هذه الإصبع في حياتي اليومية مشاعر وهواجس في داخلي وأقلقتني. أخيراً قررت تخليص نفسي منها ومن الأفكار التي عكّرت صفو عالمي الداخلي. حاولت تصور الأحلام الجميلة التي يمكن أن

يكون قد كوّنها خاتم الألماس في ذهن الفتاة قبل أن يلعب القدر لعبة أخرى تافهة.

تبيّن أن أولئك الذين هُرعوا للإنقاذ في اللحظات الأولى التالية للحادث قد سحبوا الجسد بصعوبة لتخليصه من ضغط الحطام، فتركوا بذلك خلفهم الإصبع المقطوعة محصورة داخل حديد السيارة المضغوط.

وهكذا نصحني محاميّ قائلاً: ـ"تقتضي الحكمة إعادة الإصبع إلى أهل الضحية بدلاً من دفنها. فإذا لم تُعدْ إليهم ربما يتهمونك بممارسة مهنة السحر والعرافة".

بعد تفكير مطوّل وأخذ ورد أرسلتُ خبراً إلى أهل الفتاة في القرية ـ "تعالوا من فضلكم وخذوا إصبع ابنتكم المقطوعة".

لكن لم يأت أحدٌ.

نصحني أصدقاء مقربون: ـ"ادفنها وانته منها"، لكن قبل أن أُقدم على ذلك أتى الخلاسي إلى ورشتنا ترافقه شابة جذابة. توجها فوراً إلى "الفولكس"، تفحصاها وفتشاها، ثم تبادلا بضع ملاحظات لم تصل إلى سمعي. بعدها وضع رجله اليمنى على مصد السيارة متخذاً وضعية بطولية بغية التقاط صورة له، ثم قهقها.

دخل بعدئذٍ إلى مكتبي وشرع يساوم. سألني لماذا لا نشتري السيارة الخردة منه. قلت له أعذاري، فأجاب: ـ"حسناً، لابأس، هل صحيح أن إصبعاً عُثر عليها في السيارة؟".

فتحتُ الدرج باضطراب ودون كلام، وأخرجت علبة سجائر "الروتمان". هزّها بيده فسقطت الإصبع على مكتبي محدثة

نقرة رقيقة. لم يلمسها، ألقى عليها نظرة جانبية فقط. تخيلت في ذهني فجأة كيف كانت، ربما، هذه الإصبع قبل دقائق من الحادث تداعبه وتلاطفه مانحة إياه دفئاً وبهجة وحباً.

بعد ذلك سألني بطريقة جافة: ."وأين الخاتم؟"

ضممتُ قبضة يدي بغضب، لكني أحجمت عن رد الفعل كي لا أتسبب بتفجر حالة عرقية.

بهر التماع الألماس عينيه، فتبادل مع صاحبته نظرات حب. حوّل نظره نحو الإصبع... التقطها من على الطاولة، توجه صوب الناقدة، وبحركة جازمة من يده ألقى بها في الشارع... تماماً كما يُلقى عقب سيجارة.

# لحظات سوداء وبيضاء

## Black and White Moments

برغم الثروة المعتبرة المتأتية من مناجم الألماس، كانت هذه الدولة الإفريقية الغربية موطناً لنوع من اللامساواة الاجتماعية أجبر الفتيات على بيع أجسادهن في سنٍ صغيرة، حتى وقبل بلوغهن جنسياً في حالات كثيرة.

نادراً ما كان أمام هؤلاء الصغيرات، من أجل مساعدة أسرهنَّ، خيار آخر غير بيع أنفسهن، تقديم أجسادهن لأي راغب في دفع ثمن مقبول. وكقاعدة عامة كان الزُبن إما مواطنين أفارقة ميسورين أو غرباء مهاجرين.

برغم أنه كان بالإمكان العثور على عاهرات في أوساط الشريحة الإفريقية العليا، فإن الأغلبية الساحقة من ممارسات هذه المهنة كنّ فتيات صغيرات فقيرات. إذ سرعان ما اكتشفت هؤلاء الأميات، اللواتي قضين طفولتهن في الأرياف جائعات وعاريات، أنّ بيع أنفسهن أسهل سبيل للاحتيال على العيش. لم يكن ثمة أي اعتراض على ذلك من قبل أسرهن. وعلى العكس غالباً ما دفع الأهل بناتهم إلى هذا المصير.

أنفقت هؤلاء الفتيات معظم مكاسبهن الزهيدة في شراء مجوهرات زائفة وأزياء دارجة من التجار الشرق أوسطيين. ولربما، بقصد التعويض عمّا عانينه من حرمان في طفولتهن، أولعن بارتداء الملابس الدّارجة، بصرف النظر عن الجو الرطب والحرارة الدائمة المرهقة.

تميزت (يومي) عن رفيقاتها. أحبت أن تكون "صاحبة" رجل واحد. حاولت قدر الإمكان، العيش مع زبون واحد حصراً. كان لها قلب، قلب قادر على الحب. لكن القدر ألقى بها في الشارع القذر. في طفولتها حلمت أن تتزوج وتنجب أطفالاً وتصبح أماً مثل بنات جيرانها الأغنياء. انتزعت صفحات من مجلات ملونة حملت صوراً لأزواج وعارضات أزياء بلباس الزفاف، وزينت بها جدران غرفتها البائسة.

فقدت يومي عذريتها مع رجل أعمال أجنبي كان صديقاً لوالدها وعنده زوجة من بنات بلده وأطفال. فلم تكد يومي ترجع من عند جماعة (بوندو) السرية، حيث يجري ختان الفتيات الصغيرات، حتى دفع رجل الأعمال لوالدها مبلغاً كبيراً وأخذها معه. أسكنها في شقة سرية خاصة مع كل ما يمكن أن تتوقعه محظية. وبرغم سنها الصغيرة اعتبرت يومي كل هذا أمراً عادياً. كان كل شيء مؤمناً لها في معتزلها - من لباس وطعام حسب ما تشتهي وفراش وثير. لكن تلك الأيام لم تدُم. كان شهر عسلها قصيراً.

بدا رجل الأعمال وكأنما أحس بعد فترة ببروة تجاهها، وفقد اهتمامه بها. فمرّت أيام أحياناً دون أن يزورها، وبدا كما لو أنه نسي حتى وجودها. لكنه أتى ذات يوم إليها مع صديق له ثمل من الشراب. راعت يومي النظرات الشهوانية لهذا القادم الجديد. جلسوا معاً، تعاطوا بعض الشراب أيضاً، ثم بدأ الرجل يمد يده إليها مداعباً. بدا "زوجها" رجل الأعمال بدلاً من حمايتها، مسروراً من تصرف صديقه، ثم تظاهر بعد قليل أنّه في عجلة من أمره للذهاب إلى موعد في مكان ما، فغادر تاركاً يومي لشهية رفيقه.

منذ ذلك اليوم تناوب رجل الأعمال وعديد من زمرته على النوم مع يومي. للحقيقة، قدموا لها بعض الهدايا وتركوا لها أحياناً بعض النقود، لكن ذلك لم يكن "الزواج" الذي طالما حلمت به. ذات مرة، رجل كريه آخر لم تُرضه الممارسة الوحشية معها، تحرش بها بطريقة منافية للحشمة، وانتهى به الأمر إلى ضربها بقسوة وعنف. بعد هذه الحادثة جمعت يومي ثيابها وهربت. التجأت إلى إحدى صديقاتها في المدينة. إذ لو عادت إلى أسرتها لضربها أبوها وأعادها ـ كما يجدر بالرجل الشريف الذي لا يتراجع عن كلمته - إلى صاحبها رجل الأعمال الأجنبي.

صارت يومي فتاة ناضجة. عمرها الآن تسع عشرة سنة وقريباً تكمل العشرين. فتحت الحياة عينيها على أشياء كثيرة. لم يكن أمامها من خيار سوى الشارع مع أمثالها. لكن إن امتلكت فتاة من نوعها شخصية وقلباً قوياً إضافة إلى الذكاء، فإنها عاجلاً أم آجلاً ستثبت جدارتها.

وقع شاب أجنبي آخر قادم للتوّ إلى إفريقيا في حب يومي. خلال هذه الفترة كانت قد كبرت، صارت أطول قامة وبرزت استدارات جسمها بشكل مثير. وعلاوة على ذلك أصبحت يومي شخصية قائدة وسط مجموعة من هؤلاء الفتيات البائسات المتدفقات من القرى.

غادر الشاب في إجازة إلى بلاده، لكنه اصطحب معه في عودته زوجة جميلة من مدينته. انسحبت يومي فوراً بصمت. هي أحبته، لكنها كانت على قدر من النبل والتفكير الواقعي جعلاها تتقبل قدرها. أما العريس الجديد فقد بقي أشهراً فريسة عنّةٍ غير مفهومة. بدا عاجزاً أمام جسد زوجته الأبيض العاري. وباعترافه هو نفسه أنه لم يعد إلى الحالة السوية مع زوجته إلا بعد تخيّل نفسه مع يومي، وبهذا الشكل كان كأنما يمارس الحب مع هذه الأخيرة.

تعرفت يومي بعد افتراقها مع الشاب الآخر على عشاق أوروبيين عديدين. كان الواحد من هؤلاء يقضي معها عاماً أو عامين، ثم يغادر من حيث أتى آخذاً معه شيئاً من رقتها وقلبها الحساس. أما هي فلم يكن يتبقى لها منهم سوى بعض الصور التي تضيفها إلى صور أحبّاء سابقين زيّنوا جدار غرفتها.

بعد ذلك قُدّر لها أن تنجو من حادث سيارة مروّع لقي حتفه فيه كل من كان معها. خلّف الحادث أثراً لجرح كبير في وجهها شوّه معالمه الجميلة بعض الشيء. لكن الجرح لم يُبعدْ عنها الرجال، فقد طلب يدها دوماً عديد منهم واحداً إثر آخر. قيل

إن يومي امتلكت جاذبية قوية ودفئاً لا يقاوم ـ الأمر الذي جعل من زُبُنها عبيداً لها. ألحّت في علاقتها مع الرجال على عكس الأدوار، فمنحتهم إحساساً مميزاً.

كان يوماً حاراً خانقاً. توجهتُ بعد العمل بسيارتي إلى "فندق المدينة" لاحتساء قدح من الجعة الباردة. كان هذا المكان معلماً مشهوراً، منتجعاً ووكراً لمثقفي وعاهرات البلاد. كان في الحقيقة، المكان الوحيد في المدينة الذي حافظ على روح الماضي. "فندق المدينة" هذا كان المقصد المفضل الذي ترددتُ إليه، لأن الكاتب غراهام غرين عاش فيه قبل نحو ثلاثين عاماً. وهنا كتب عمله العظيم "جوهر القضية" متخذاً من شرفة الطابق العلوي مجلساً له. وبقي كل شيء هنا، بعد انقضاء زمن طويل على مغادرة غرين، على حاله كما كان ـ الأثاث والبار والجو المحيط وحتى الناس.

راقبتُ جمع الناس جالساً في زاوية... فتيات جديدات، وجوه مشدوهة... رئيس تحرير مشهور يداً بيد مع فتاة صغيرة متجهان صوب جهاز الموسيقا الأوتوماتيكي. دسّ في يدها بعض النقود وغادر شاتماً بصوت عالٍ. وقفت الفتاة هناك وحيدة. في تلك الأثناء سُمع صوت طبيبٍ جرّاح معروف بمرحه وصخبه يصرخ من زاويته: "الآن سيذهب وينشر مقالة عنيفة حول آلة الموسيقا الأوتوماتيكية، أليس كذلك..."، ثم انفجر ضاحكاً.

نادتني الفتاة باسمي. حدّقت في وجهي بعينيها الواسعتين الجميلتين. ابتسمت لي. كانت جميلة، وهي نفسها عرفت ذلك،

انتظرت أن أدعوها. لا أذكر أني رأيتها قبلاً. كانت ترتدي بنطالاً أبيض أنيقاً وحذاء أبيض أيضاً بكعب عالٍ. كانت بشرتها فاتحة، وهذا يدل أنها من قبيلة (سوسي). ربماً لم تعرف أني متزوج (علماً أن ذلك غير مهم على الأقل بالنسبة لهؤلاء الفتيات)، ولم تستطع تصور أني كرهت فكرة شراء الحب.

اقتربت مني أكثر، كما لو كانت عازمة ألا تدعني أفلتُ منها. أخطأت فهم نظرتي، فقد أردت التعبير عن رغبة بسيطة في أن أبقى وحدي، ولم يكن ذلك من قبيل التواضع الكاذب كما افترضت هي. آه لو تعلم فقط كم ذكرّتني بـ يومي، ببطلتي. لكن يومي ليست هنا، ليست قريبة منا ـ لا يمكن أن تكون هنا الآن. كلما دخلتُ هذا البار أشعر بحضورها مثل أي فرد آخر موجود. كانت مثل مخلوق من السماء لا علاقة لها بواقع وبشاعة هذا العالم.

* * *

استرخاء:

عدتُ من جولة طويلة في أوروبا. خطت يومي نحوي حاملة قدحاً من الجعة. لا أعرف كيف أصف علاقتي بها. لم تكن ثمة أية صلة جسدية بيننا خلال صداقتنا التي استمرت سنين عدة. هل كانت نوعاً من الاستلطاف؟ الإعجاب المتبادل؟ أو الفضول العادي؟

أتت وجلست بجانبي. سألتها:

- كيف كانت إنكلترا؟

- لم أكن في إنكلترا؟ لم أسافر من هنا منذ عام.

- أين كنت مختبئة إذن.

- ولا في أي مكان. ألم تسمع بما حدث لي؟

- لا، لم أكن هنا منذ زمن. علاوة على ذلك، كنت غارقاً حتى أذني في متاعب شخصية.

تابعت كلامها دون أن تترك لي فرصة لقول أي شيء: "تعلّقتُ جدّياً بمهندس هولندي". توقفت قليلاً كمن تنتظر إشارة تشجيع ترتسم على وجهي، ثم أضافت: "التقينا هنا ذات ليلة".

لقاء عاطفي حصل مصادفة، ثم تطور إلى علاقة حب صادق. كانت تلك أول تجربة إفريقية لهذا المهندس. لم يصدق حظه الطيب... طلب منها ورجاها أن تقضي ليلة ثانية معه. وهكذا استمرت العلاقة أشهراً.

هنا قاطعتها قائلاً:

- أعتقد أنه كان عزباً...

- أواه، لا، ومن هنا بدأت المأساة - قالت.

كان المهندس الشاب متزوجاً من امرأة شقراء من بلاده، وتلك كانت المفاجئة. لكن علاقتهما كانت غير مستقرة... شجارات ومشاحنات مستمرة. غادرت إلى أوروبا وأقامت مع عشيق قديم، وبقي هو هنا وحيداً جزعاً. وهكذا شكلت مصادفة لقائه بها منعطفاً خطيراً في حياته. لكن سرعان ما التقط هذا الأوروبي الناعم جرثومة الملاريا ومرض جدياً. لازمته يومي، وقفت بجانبه في النهار والليل، طبخت له الطعام واعتنت به. تمكنت تدريجياً من تخليصه من أنياب الموت، وساعدته في استعادة صحته. وعندما كان

في أوج مرضه أخبر ربُّ عمله زوجته بقدره المشؤوم. لكن الزوجة الهولندية لم تكترث بذلك. وهكذا قرّبته لا مبالاتها أكثر من "فتاة الشارع" الإفريقية.

علاوة على ذلك أقلع المهندس ويومي عن إخفاء صداقتهما خلف مظهر خادع. خرجا إلى الناس. كان ذلك، بالنسبة لهذا الرجل الهولندي، أقل ما يمكن أن يفعله لإظهار تقديره لإخلاص يومي ولتضحياتها من أجله. أما بالنسبة لها فقد كان ذلك أثمن هدية ممكنة. كان امتلاكها لعشيق واحتفاظه بها نصراً بحد ذاته. كان تجوالهما في المدينة متأبطاً كل منهما ذراع الآخر ظاهرة غير اعتيادية. ارتادا معاً "النادي الاطلنطي".... "التروبيكانا"... المطعم الأرمني... شوهدا معاً في كل مكان... يأكلان، يشربان، يرقصان، كان لكل ذلك تأثير مذهل على رفيقاتها بنات الشارع.

لكن هاهي زوجة المهندس قد قرّرت القدوم إليه. يبدو أنها تعبت من مغامراتها، فالتحقت به في إفريقيا. والآن جاء دور يومي كي تغادر. حزمت حوائجها في حقيبة عتيقة رخيصة الثمن، ولم تستطع حبس دموعها. لم تذرفها على فردوس مفقود . كانت مغرمة بحبه بعمق وجنون، برغم أنها لم تجرؤ على تسمية شعورها. غالباً ما يتداخل الحب والقدر؛ ربما لا وجود لأحدهما دون الآخر . على هذا النحو غرقت في تأملاتها.

استمرا في اللقاء سراً. افتقرت صلاتهما السرية المسروقة إلى الحلاوة والحيوية المعهودتين، لكنها تصالحت مع هذا

الواقع. شعرت أنها مضطرة لمعاودة التردد إلى "فندق المدينة" من جديد. لكن الحياة الماضية لم تعد تشدها، وبدت لها فكرة ممارسة الحب مع رجل آخر مثيرة للغثيان.

قاطعتها، وبالكاد مخفياً سروري:

- هذا يعني أنك هجرت كلياً سلوك الماضي، حان وقت الاستقرار.

كنت حريصاً ألا أستخدم كلمة "زواج"، ففي إفريقيا السوداء العيش معاً مساوٍ للزواج، نهاية للقصة. لكنها هزّت كتفيها قائلة:

- لا يستطيع صديقي تغطية مصاريفي تماماً، لكنني أحاول عدم العودة إلى العمل من جديد. أنت تعلم أن تلك الكلبة زوجته متطلبة جداً وهو مسكين.

بدا أنها فهمت قصدي وما دار في خلدي، فترددت لحظة، ثم قالت: - "أتيتُ اليوم إلى الفندق لرؤية بعض الأصدقاء القدامى". حاولت جهدها تبديد شكوكي مضيفةً: -"قلت لنفسي فلأخرج لتناول قدح من الجعة وأسترخي قليلاً". ثم أشرق وجهها بإعلانها أخباراً جديدة سارة: "هما في شجار دائم. زوجته تشممت رائحة علاقتنا فشعرت بالإهانة. فلو أني كنت امرأة بيضاء ربما لاختلف إحساسها بالغيرة بعض الشيء... لما ثارت ثائرتها على النحو الذي يحصل معها الآن".

كان ذلك آخر لقاء بيننا.

انتهت شكاوى المرأة الهولندية مع عودتها إلى هولندا. احتضن المهندس من جديد يومي.

كان السكان الغرباء مغتاظين من هذه العلاقة. رأوا أن هذا المهندس قد ألحق العار بالبيض، بالعرق الأبيض. فبالنسبة للأوروبي، يمكن أن يكون كل شيء مسموحاً مادامت لم تلطّخ بقعة سوداء البياض الذي وهبه الله له. أدار أصدقاؤه ظهورهم له، نأوا بأنفسهم عنه، سرّحوه من عمله، وخلق له مدير البنك متاعب في حياته.

لكن هذه المضايقات والمتاعب زادته عزماً وعناداً في قراره. صمد في وجه كل ذلك. وجد عملاً في شركة للسود. استمر في العيش مع يومي.

أحبّها فعلاً وتمنى أن ينجب طفلاً منها.

أوقفت يومي تناولها لحبوب منع الحمل. لكن ذلك لم ينفع في شيء. أحست باليأس، فالتجأت إلى طبيب شعبي في القرية طلباً للمساعدة. غدت مهووسة بمسألة إنجاب طفل من حبيبها. المرأة الهولندية بدورها كانت عاقراً. رأت يومي أن ولادتها لطفل كفيل بتطهير أعضائها، تخليصها من لوثة الماضي. عملتْ المستحيل، لكن عبثاً...

ذات يوم نزفت يومي دماً بغزارة. لم تستعد عافيتها. لفظت نفسها الأخير بين ذراعي حبيبها الأبيض وأمام عينيه الدامعتين.

# الطاغية

## The Despot

مات الطاغية. مات دكتاتور القارة الإفريقية الأول والأقوى. توجهتُ متشحةً بالسواد لتدفنه في المنفى. كان بطلَها، حبها السري، مسيحها، معبودها...

كانت مذكراتها السّرية المخبوءة في صندوق معدني هي موضوع الحديث في أوساط معارفها الذين تساءلوا فيما إذا كانت ستنشر هذه المذكرات الآن بعد أن مات الدكتاتور.

بقي هؤلاء في قلق وحيرة.

عرفتُ (إيريكا) جيداً. كنت قادراً على فهم العالم الداخلي الهادئ خلف المظهر الزائف لتحفظ الإنكليز. كانت جذابة على الرغم من سنها الذي قارب الأربعين. ففتنتها الجنسية ضاهت الخطوط الأنثوية المتناسبة مع عمرها، وبدا أن هذه الفتنة ستمتد لسنوات لاحقة.

تعارفنا أثناء حفلة شراب صاخبة، وبالكاد استطعنا معها سماع بعضنا وسط الصخب.

- مرحباً، أنا إيريكا جونز، وأنت ما اسمك...؟

- "..."

ترددتُ لحظة محاولاً، عبثاً، التهرب من الكليشيهات المملة للحديث الاجتماعي الذي تفرضه المناسبة في هذه الأماكن الاستوائية. تلا هذا التشوش ارتباك، فأجبتها:

- نعم، سؤال جيد... من أنا؟ ولدتُ في مدينة بحرية تركية صغيرة، نشأت في شوارع بيروت، أتشارك مع المواطنين هنا الإقامة على هذه الشواطئ الإفريقية الغربية، وأنا واحدٌ من قلة أرمنية باقية، مواطن عالمي...

- ما قلتَه آخراً هو الأهم، هو الأمل الأخير للبشرية، جواز المرور الأهم إلى المستقبل... أمل دونه مزيدٌ من الدماء المسفوكة.

اكتسب وجهانا حيوية أكبر مع الرضا المتبادل من تحوّل حديثنا بنجاح بعيداً عن التفاهات واتخاذه مساراً أكثر إمتاعاً. غدت الحفلة تدريجياً أكثر حيوية. وجدت القضايا الكبرى خواتيمها في جو شبه العتمة، حيث بدا هذا الخليط يتخفف من السأم.

أدرنا الظهر للحشد اللاهي، وانهمكنا، بعد أن صرنا وجهاً لوجه أمام العتمة الصامتة للمكان، في نقاش فلسفي حول المشاكل الاجتماعية ـ السياسية العميقة المعقدة لإفريقيا.

لم يكن سن إيريكا هو ما دفعها لإيثار المواضيع الجدّية على تلك الخفيفة المنعشة للفؤاد؛ فنساءٌ أكبر سناً كنَّ منشغلات بطقوس تلهب الدم في العروق مثل الرقص البطيء الحميم - Slow dances.

- نعم، قل لي من فضلك، أي حقٍ لنا في فرض أيديولوجياتنا ومبادئنا وأخلاقنا وأنماط عيشنا على الإفريقي. فبالنسبة إليه، الأسلوب الطبيعي الوحيد هو ذاك النابع من الحضارة الإفريقية العائدة إلى قرون كثيرة ماضية. هذا النمط من العيش في دمه، في نخاع عظمه. إنه يأتيه من أعماق الغابات الإفريقية. أنماطنا، التي ترى أنها الأفضل والأكمل، تسلخه في أحسن الأحوال عن حضارته، لكنها لا تحبّبه بحضارتنا. هنا كل دين آخر، أو فلسفة غريبة مآلهما الإخفاق من البداية يا صديقي. هذه حقيقة. فنحن بذلك لا نجد حلولاً، بل نخلق مشاكل جديدة في إفريقيا.

تكلّمتُ بحماسة، وكان وجهها يومض تجاوباً مع كل كلمة نطقت بها. دلَّ إصغائي بصمت على موافقتي على كلامها. فخلال تجوالي في أنحاء القارة السوداء خلصتُ إلى النتيجة ذاتها. خطر في بالي أن هذه الأفكار هي، إلى حد كبير، أفكارٌ طرحها الدكتاتور نفسه، وهي الفلسفة التي طوّرها. كانت أفكارها صدى لأفكاره.

في ذلك المساء حرصتُ على تجنب ذكر اسم عشيقها الأسود وعدم الإفصاح عن علاقة حميمة غير عادية استمرت عشرين عاماً متجاوبة في ذلك مع طبيعة شخصيتها وأخلاقها الإنكليزية.

بعد سقوط الطاغية حملتها الرياح باتجاهنا لإدارة عمل مكتب هنا شبيه بعملها السابق. تعامل أبناء بلدها البريطانيون

معها هنا بحذر شديد. هل كان إخلاصها لذاك الإفريقي المتغطرس، وفق ما رأوه، سبب هذه المعاملة؟ هل كان التحقير الذي لحق بالاستخبارات البريطانية القوية من خلالها هو ما أثار حساسيتهم؟ أم إن رفضها لمبالغ هائلة من المال عرضتها عليها دور نشر كبرى مقابل مذكراتها عن الطاغية هو ما جعلها غير مفهومة؟

قد يكون الطيش مفهوماً في سني الطيش من عمر الإنسان. لكن إيريكا تجاوزت ذلك العمر. كان من الصعوبة بمكان على أي شخص فهم السبب الكامن خلف هذا الرفض العنيد لإخراج المذكرات إلى النور عن مجنون ضحّى من أجله بنفسه جيل كامل من الشباب. لماذا لا تتمتع بما يمكن أن تحصل عليه من مكاسب من وراء ذلك - من قبيل امتلاك بيت، عيش مستقل، شهرة عالمية ومعجبين؟ لماذا ترفض بعناد وحماقة الإفراج عن هذه المذكرات القيّمة؟

كان على المرء فهمها جيداً من أجل فهم هذا اللغز.

جاءت إلى ورشتنا ذات يوم بسيارتها طالبة طلاء إطار لوحة لصورة شخصية. لاحظتُ على مقعد سيارتها الخلفي اللوحة المقصودة. كانت لوحة زيتية مرسومة بخطوط رسام مبتدئ قليل الخبرة. الرأس الأسود كان رأس الدكتاتور. جذبني حالاً شعور خفي إلى هذه اللوحة. فمن بين مئات لوحات الصور الشخصية التي رأيتها للمسيح تميزتْ هذه بتعبير إنساني فائق.

- أنت فتاة شيطانة يا إيريكا، لم أعرف قبلاً أنك موهوبة بهذا الشكل. كاتبة، فنانة، عشيقة لمعبود، وماذا غير ذلك؟

بدت مرتبكة قليلاً وقالت مع بعض التواضع:

- رسمتُ دوماً كهاوية، لكن هذه هي محاولتي الجدية الأولى في رسم صورة شخص. قل لي ما رأيك بها؟

- هل رسمتِها من صورة فوتوغرافية؟ ـ سألتها قبل إعطاء رأيي.

- لا، رسمتُها من الذاكرة. صورته كانت في مخيلتي.

- أنت أنْسنْت الطاغية.

- لا تَكن أحمَقاً. ثمة إنسانٌ خلف الصنم المعبود وأُتيحت لي فرصة معرفته.

- هل نمت معه؟

تفحصتْني بعينين واسعتين. لم يكن بوسعي فعل شيء، فقد أفلت السؤال عفوياً من بين شفتيّ. تغيّر لونها. أحسستُ بالارتباك لأني حشرتها في زاوية، و هيّأت نفسي لما هو أسوأ. شعرت بما يمكن أن يصدر من جانبها من انفجار مناسب. لكن، بدلاً من ذلك، ارتسم على وجهها ظل ابتسامة كئيبة.

- نعم، لكن عبارة "النوم مع" سوقية قليلاً. من أجل إعطاء المعنى الحقيقي لما حصل حقيقة، لما شعرتُ به حقاً، فإنك تحتاج شيئاً أسمى من إطار "الفعل الجنسي". بعدئذ قالت بعفوية وابتهاج فتاة صغيرة أحدثت اكتشافاً: ـ "نعم، وجَدتُها. كان ذلك أشبه بتناول القربان المقدس، بصلة تفاعلية حميمة.

فالنوم مع عمالقة، مفكرين، كتاب، قادة معبودين، وأشباه للمسيح هو طقس ديني، تواصل مع أفكارهم".

غدا الأمر واضحاً. كانت تُكنّ حباً مثالياً دون مبالغة لرجل عظيم، وأرادت أن تحتفظ بهذا الحب لنفسها، أن تستبقيه وتستمتع وحدها بمذكراتها عن تلك العلاقة المقدسة. ارتعبت وقرفت من فكرة مشاركة الآخرين بذلك الامتياز، من تحويل تلك المذكرات إلى عملة وتقييمها بجنيهات استرلينية.

لقد قبلتْ كفتاة صغيرة مع بعض التردد وظيفة سكرتيرة شخصية لمحامٍ أسود شاب ووسيم. وحصل أن صار ذلك المحامي زعيم حزب سياسي، ناضل ضد الظلم والاضطهاد ودخل السجن، ثم صار، بعد اضطرابات سياسية كثيرة، رئيس حكومة، دكتاتوراً ورئيس جمهورية مدى الحياة. أخيراً، وتتويجاً لكل ذلك، رقص مع الملكة. ارتعشت هذه الأخيرة بين ذراعي المسيح الأسود.

إيريكا الفتاة الإنكليزية الشابة أحبت الدكتاتور بكل كيانها الأنثوي. خدمته بإخلاص لا يُحدّ. ومعه ما كان ممكناً غير ذلك. فهو مخلوق لرسالة مقدسة، لقيادة الجماهير. خطبه النارية ألهبت إفريقيا السوداء كلها. كان حامل مشعل بعث كرامة الإنسان الأسود. ومن أجل ذلك تجرأ على حرف الوقائع التاريخية عن مسارها الطبيعي: "الأفارقة كانوا أول من اكتشف... أميركا!".

كيف كان بالإمكان أن تقوم فتاة إنكليزية وحيدة بمواجهة هذه الشخصية المتغطرسة؟ القدر وضعها وجهاً لوجه أمام العظمة. ارتجفت بحضوره مثل شجرة الحور الصامدة في وجه الريح. وذات يوم استسلمت بين ذراعي الدكتاتور وقدّمت عذريتها الغضّة البيضاء. اندفعت طاقته الجنسية في كيانها بقوة البركان واشتعلت كلياً بنار عينيه اللاهبتين.

هو نفسه، ربما، لم يعلق الأهمية ذاتها لعلاقته مع سكرتيرته بالمقارنة مع الأهمية التي أحست هي بها. فقلبه كان مشتعلاً بنار أخرى مختلفة نابعة من الحاجة الملحة التي تتأكله لتخليص شعبه من المخالب السامة وتحطيم أصفاد العبودية الصدئة واستعادة كرامة شعبه.

لكنّ ذلك ليس كل شيء. كانت لديه أيضاً عشيقة ساحرة الجمال في جوهانسبرغ... أحس بمتعة عجيبة أثناء ليالٍ قضاها معها.

الطغاة مخلوقون لاستخدام الناس فيما هم معبودون من قبلهم. وهو لم يكن استثناء. أحبوه؟ كيف؟ كان صلاة الصبح على شفاه الأطفال الأبرياء. كان المسيح، قمة التأليه لشخص: حمل الشعب المسكين على أكتافه العارية عبء أخطائه التي كان ثمنها ملايين الضحايا.

هل كانت إيريكا عمياء عن كل هذا؟ أم كانت راضية مكتفية بالجانب الجنسي لعلاقتهما؟

من الصعب تكوين فكرة صحيحة واضحة عن الطاغية وهو على رأس منصبه.

لكن ها قد سقط.

خابت آماله في استعادة سلطته وواجه حقيقة المنفى القاسية. نقص الشجاعة في التسليم بواقع الحال أرهقه. كان من شأن هذه الالتفاتة النبيلة من بلد جار صديق التخفيف من ألمه، لكنها لم تساعده كثيراً. بدا الدكتاتور، مع إقامته في المنفى، هرماً قبل الأوان وضئيلاً دون منصبه... ذوى واختفى ذات يوم كما يختفي الظل.

بسماحٍ خاص من قبل الدولة الجارة قدمتْ المرأة الإنكليزية متشحة بالسواد لدفن حبها الأول والوَحيد، دكتاتورها، مسيحها، معبودها...

عادت، بدت أكبر سناً الآن... رسمت صورته من الذاكرة. فاض نهر الألم في قلبها ممتزجاً بأصباغ الصورة المرسومة.

ألبستْ صورة بطلها الأسود إطاراً خشبياً أبيض.

# الشواطئ التي غُسِلت بالأمواج

## Washed by the Waves

كوخ صغير انتصب على رمال شاطئ الأطلسي.

لولا حركة الذؤابات البيضاء للأمواج اللطيفة المتلاشية في الرمال ذات اللون الذهبي الداكن لتساوقت ألوان المكان تماماً مع السكينة المطبقة.

قرب الكوخ استلقى بتكاسل على كراسٍ طويلة نحو عشرة أفارقة أو أكثر قليلاً من سكان المدينة بملابس سباحة برزت من خلالها أجسادهم المكتنزة والمترهلة. بدا الرجال والنساء على السواء مرتاحين جداً فقط لطبقات الشحم المتهدلة المتدلية من أجسادهم؛ فاستمروا يزدردون فخورين مزيداً من الجعة، ويصفّون الزجاجات الفارغة على الرمال في شكل هندسي شبيه برقعة الشطرنج.

تلَا هذا الطقس المتكرّر من قبل هؤلاء حركات دائرية بالأيدي وتربيتات رضا على البطون الشبيهة بالبراميل. وترافقت هذه العروض دوماً مع ضحك صاخب، بينما الصبي

القروي يقدّم المزيد من الجعة الباردة من طبقٍ وهو يلحس شفتيه الجافتين بلسانه الوردي.

كانوا قضاة وموظفين مدنيين كباراً من قبيلة (كريّو). وكما في كثير من البلدان النامية تعتبر البدانة علامة أكيدة على الثروة. ففي نيجيريا، على سبيل المثال، تبقى الفتيات المخطوبات حديثاً رهينات ما يُسمّى "بيوت التسمين" ويُطعمن جيداً حتى يوم الزفاف، وأحياناً إلى الحد الذي يؤدي بهنّ الامتثال لهذا الطقس الإجباري المفروض إلى عدم قدرة الفتاة على الخروج من الباب الذي دخلت منه.

في مكان ما وسط هذا الحشد من الضحك السخيف وطبقات النسيج الشحمي المألوف استلقى شاب ذو ملامح رقيقة وجسم رياضي دون حراك على كرسيه فيما نظره مثبت باتجاه المحيط متأملاً بهدوء التدفق الأبدي للأمواج. بدا منفصلاً عن محيطه، وترك، من النظرة الأولى، انطباعاً يشي بالتكبّر والعجرفة. بقي قدحه المملوء بالجعة على حاله بعد أن ذابت قطع الثلج فيه... هل كان، بوصفه وزير خارجية البلاد المعيّن حديثاً، يفكر ملياً بمسألة دولية ما معقّدة؟

لم يكن الآخرون حوله مسرورين من برودته، لكنهم، وبالخبث المعهود الذي عُرف به أهل (كريّو) الحقيقيون، فعلوا خيراً عندما تظاهروا أنهم لم يلاحظوا قلّة لباقة الوزير الشاب وعدم تواضعه. لكن هل لو كانوا مكانه في هذا المنصب الرفيع وحملوا درجة علمية من أوكسفورد ومن أصول نبيلة (كان والده رئيس

برلمان وحمل لقب (Sir) وتميزوا - علاوة على ذلك - بمثل جماله الجسماني - هل كانوا سيتصرفون سوى أشبه بآلهة حقيقيين؟ لكن وراء سلوك هذا الوزير الشاب ومعاناته كانت أسباب أخرى بعيدة عن مثل هذه الاعتبارات.

التفتت أصغر الفتيات الموجودات (وكانت على قدرٍ من الجمال برغم سمنتها)، التي لم تحوِّل عينيها عن الوزير، إلى رفيقتها وهمست: "فرجينيا، ألم تلاحظي بأن (إزمون) لم ينزل إلى الماء اليوم؟". وافقتها فرجينيا بإيماءة من رأسها وتنهدت كما لو كان الأمر ينطوي على شيء عظيم محزن وغامض قائلة:

- "آه، إزمون... إزمون!".

كان باقي الجماعة لا يحسنون السباحة وبقوا بعيدين عن الأمواج، لكن إزمون المتعلم في أوروبا قدَّر عادةً السباحة. امتلك يختاً صغيراً وأحب رياضة الغطس. هكذا، فلماذا إذن يتجنب السباحة في المحيط؟ كانت قلة فقط على علم بهذا السر.

* * *

كان الزمن منتصف الستينيات - أحرج وأصعب فترة في تاريخ إفريقيا. بعد أن استقريتُ في عملي انغمستُ - بعد طفولة قضيتها في فقرٍ مدقع - في الاستمتاع بالثمار التي وفّرها لي عملي الصعب. في تلك الأيام كنت غارقاً من رأسي حتى أخمص قدمي في حب فتاة إسكتلندية. ونظراً لطبيعة شخصيتي الرومانسية، فقد كنت ميالاً لإضفاء صبغة مثالية عليها. كانت (آن) واحدة من مجموعة معلمات تطوعن للعمل في إفريقيا،

ووجدتُ فيّ الحنوّ الذي افتقدتْه في والديها. عاشت آن مع زميلتها (إدنا)، الأميريكية من أصل إفريقي وعشيقة إزمون، في منزل مؤلف من طابقين. كان هذا المنزل شيئاً آخر مختلفاً عن الأكواخ الصغيرة المحيطة به. سكنت إدنا في الطابق الأول، وعندما التقيتها عن طريق آن ذكرتني بحادثة صغيرة حول علاقتي بـ آن اعتبرتْها طريفة جداً، وهي كالتالي:

سألتني آن عندما زرتُها في شقتها في المرة الأولى:

ـ ماذا تود أن تشرب؟

ـ سأشرب أي شيء متوفر عندك ـ أجبتها.

أحضرت لي شراب الجن مع الصودا، لكن بعد رشفة صغيرة ووسط جحيم من القبل نسيتُ، بشكل طبيعي، الشراب.

طرحت آن عليّ السؤال نفسه، في الزيارة التالية وأجبتها الجواب المؤدّب ذاته. لكن كان طعم الجن والصودا في هذه المرة رديئاً جداً. مع ذلك، وانطلاقاً من تقديري لها، شربتُ القدح اللعين حتى الثمالة. وللحقيقة فقد سكرتُ من انغماسي العنيف بلعبة الحب مع فتاتي الاسكتلندية أكثر من سُكري من شرابها الرديء.

بعد أشهر من ذلك، وكانت علاقتنا قد أصبحت أكثمر حميمية، اعترفت لي آن أنّ قدح الجن مع الصودا الذي قدّمته لي في المرة الثانية كان هو ذاته ما قدمته لي في المرة الأولى، وقد احتفظت به في البراد أسبوعاً كاملاً.

* * *

كانت إدنا المرأة الأميركية الإفريقية الأولى التي التقيتُها، وأعجبتني كثيراً. وددت التعرف عليها والمقارنة بينها وبين أخواتها المولودات في إفريقيا. عشيقها الشاب من قبيلة (كريّو)، الذي أوقف سيارته الرياضية بجانب سيارتي، تصرف معي دون مبالاة وبما ينافي اللباقة، محاولاً الإبقاء على مسافة بيننا. ربما تصورني لبنانياً فقيراً آخر. ونظر الأرستقراطيون الأفارقة من علٍ عموماً إلى أبناء الشرق الأوسط مطلقين عليهم جميعاً تسمية "سوريين".

عملت آن جهدها لتغيير القناعات المسبقة لابن (كريّو) المحامي إزمون من خلال امتداح مناقبي، التي كان بعضها حقيقياً ومعظمها متخيلاً. وهكذا دعتنا إدنا ذات مرة إلى حفلة ساهرة في شقتها واستمعنا إلى موسيقا كلاسيكية بعد عشاء فخم. وبدوري دعوتُهم إلى بيتي ذات ليلة لتذوّق المطبخ الأرمني والاستماع إلى الموسيقا الأرمنية.

على هذا المنوال سارت الأمور... لكن آن، بعد عام كامل من محاولاتها العبثية كي تتكلّل علاقتنا بالزواج، حزمتْ أمتعتها في ظل دهشة الجميع وعادت إلى اسكوتلندا. لكن مغادرتها لم تؤثر على صداقتي مع إدنا. فكانت هذه الأخيرة امرأة ذات طبيعة شاعرية حساسة ورائعة الجمال. حصلتْ على عمل في إذاعة محلية وقدّمت برامج موسيقية وشعرية كل يوم سبت ليلاً. وكان موضوعها الرئيس يقظة الأفارقة الأميركيين.

جذبتْ أفكار (مارتن لوثر كينغ) و"الفهود السود" وآخرون النشطاء المخلصين من أمثال إدنا إلى إفريقيا. فبإحساس الخائب الرجاء بالنظام رفع ساكنو الجنة الأميركية قبضاتهم في وجه الظلم والتعصب العرقي وغادروا وطنهم قاصدين شواطئ إفريقيا، ساعين لإعادة اكتشاف جذورهم مصدر فخرهم ولضم جهودهم إلى جهود أبناء وطنهم في الكفاح من أجل التحرّر والتطور الاقتصادي.

انفصلت إدنا عن زوجها الأميريكي من أصل إفريقي الميسور الحال. لم تر فرقاً بين البورجوازي الأسود والبورجوازي الأبيض. فهما معاً يشكلان جزءاً من بنية النظام الرأسمالي الذي أعلنت هي ورفاقها الحرب عليه. تركت وراءها كل شيء، بما في ذلك المنزل والسيارة، ورضيتْ براتب متواضع هنا لايكاد يكفيها للعيش.

لكن لم يمر وقت طويل حتى شعرتْ بالإحباط من سلوك أخواتها وأخوتها السود. ففي إفريقيا أيضاً تستغل الطبقات الحاكمة دونما شفقة الجماهير البائسة. توصّلت إدنا، بقلبٍ كسير، للاعتقاد بأنّ الطبيعة البشرية غير مختلفة البتة بين قارة وأخرى.

فحيثما ذهبتَ تواجهك قوانين الغاب ذاتها. يدوس القوي على الضعيف ويمتص دمه في حقيقة الأمر. ولقد صار البورجوازيون الأفارقة يبدون امتعاضهم عندما يذكّرهم الأميريكي الأسود المثالي التفكير بأنه من المعيب أن يستغل

الإفريقي أخاه الإفريقي، في الوقت الذي صار فيه حتى المستعمرون يتجنبون - ظاهرياً على الأقل - فعل هذه الأمور البغيضة. يقولون لأنفسهم، من أي جهنم أتتْ هذه الحفنة من المحرّضين الأميريكيين السود وتجرأت على تعليم السكان المحليين الوعي الاجتماعي دون أي شيء آخر؟

قررت إدنا آلاف المرات المغادرة، العودة للذوبان من جديد في المرجل الأميريكي. لكن قوة مخيفة كانت تعيدها في كل مرة وتشدها إلى المدينة ذات الشوارع القذرة الضيقة التي اختارتها بمحض إرادتها. تلك القوة كانت حبها للمحامي الشاب ابن (كريّو).

لكن إلى متى يستطيعان الاستمرار في لعبة الحب وقضاء الوقت معاً مبتعدين عن الأعين وفي ذعر مخافة أن يُضبطا متلبسين بالجرم؟ طرحت إدنا على نفسها السؤال وحاولت ألا تفكر به. عندما تكون المرأة مستغرقة في علاقة مع رجل متزوج، فإنها مضطرةٌ، بصرف النظر عن مدى قدرتها على تطويل ساعات الليل، إلى العودة إلى روتين الوحدة والغمّ الطاحن. فعند إزمون زوجة، وهو صاحب منصب رفيع في الحكومة... وهو مضطرٌ، بحكم ذلك، على الظهور بين الناس مع زوجته. لكن إدنا أرادت امتلاكه، امتلاكه كله وليس قلبه فقط. تاقت لأن يكون لها، لأن يبقى لها وحدها. أرادت أن تعتني به، أن تطعمه وتلبسه وتقدم له طبق الفطور إلى سريره وأن توقظه من نومه مع قبلة. لكن لم يكن مقدّراً لها أبداً أن تحقق أمنياتها. فلن

ينهضا معاً من السرير نفسه بعد غفوة. وفي الحفلات العامة لم يكن متاحاً لها حتى الاقتراب منه. كم تمنّتْ الرقص معه طوال الليل، الذوبان بين ذراعيه أمام نظر أولئك النساء الحسودات الغيورات! لكن كانا، بدلاً من ذلك، يتظاهران كغريبين بين الناس. كان من المفترض أن تكون راضية ببضع ساعات في اليوم، وكان عليها، بعد هذه اللحظات من الرضا، أن تعيش عزلة قاتلة للروح...

كان بإمكان إزمون أن تكون له أية امرأة أراد ــ سوداء أو بيضاء. هنّ انتظرنه بأذرع مفتوحة، رجوْن منه كلمة. لكن إدنا كانت غير كل هؤلاء النسوة. كانت مثال الجمال الجسمي والروحي والعقلي. بعد أن تعرّف عليها نسي كل النساء، اكتفى بها. جسّدت في ذاتها كل نساء العالم.

زارتني ذات يوم. كنا صديقين، وأفضت لي بصدق ما دار في خلدها: - "أنا سأسافر. سأعود إلى الولايات المتحدة، إنها النهاية". قرأتْ الشك في عيني، فأضافت: - "عليَّ اتخاذ قرار، لا مفر من ذلك... كلما طال الزمن أصبحت المغادرة أصعب".

هكذا غادرت إدنا. لكنها لم تكن تصمدُ عدة أسابيع. عادت قبل انتهاء إجازتها. اصطحبت معها في هذه المرة ابنها ابن الثانية عشرة بسبب عدم قدرتها على تقبل فكرة العيش بعيدة عنه. قررت التضحية بنفسها من أجل إزمون برغم المأزق السيء الذي آل إليه حالها.

استأجرت سيارة وتوجهت مع ابنها إلى بيت إزمون الصغير الكائن على شاطئ المحيط لقضاء بعض الأيام. كان إزمون ينضم إليهما بعض ظهر كل يوم. خلال ذلك الصيف المجيد أضحى ذلك الكوخ عشاً للحب. الرمال، الشمس، المياه العميقة، أشجار جوز الهند بشكلها الساحر ـ كل ذلك هدّأ من روع إدنا. بدت مفتونة كثيراً بنمط الحياة الساحلية كما بإزمون. نسيتْ في ظل هذا النعيم الخالص حتى أمنية تحقق زواجهما. لكنها سرعان ما أدركت أنه لا يمكنها أكثر تجاهل ذلك. أصبحت الفكرة هاجساً مقلقاً. هي التمست وهو رفض. فعانتْ زوجته من مرض لا برء منه. وانطلاقاً من هذا الواقع ما كان ممكناً بالنسبة له التخلي عنها والزواج من جديد.

دخلت علاقتهما في مرحلة عاصفة. لكن ذلك لم ينعكس على حميمية العلاقة، على العكس بقي كل منهما يحب الآخر حتى العبادة. لكن حال زوجة إزمون المريضة عكّر صفو حبهما. أثّر هذا الجو المشحون بالقلق على صحة إدنا. بدأت تتحف. غدا حبها لإفريقيا، لروح إفريقيا المضطهدة، الذي ألقى بها على هذه الشواطئ، متجسداً في رجل واحد، في شخص بورجوازي وحيد. شعرت أنها بذلك قد خانت مُثلها العليا. عدا ذلك، جلب لها هذا الحب غير المكتمل الكرب والألم بدلاً من السعادة والهناء. بدأت تكره نفسها. أحست أنها هرمت وأنها غدت بشعة. رأت كلّ ما حولها سواداً في سواد. حاولت التماسك كي لا تقودها أفكارها الكئيبة إلى ما هو أسوأ، لكنها فشلت في ذلك.

كان لقاؤهما الأخير على الشاطئ. لم تصطحب ابنها معها... شربا، وبرغم طبيعتها الخجولة أجبرته على ممارسة لعبة الحب على الرمل تحت السماء. استغرقا في نشوة الحب، ثم استسلما بعد ذلك لأمواج المحيط كي تغسل جسديهما من آثار عبثهما. قررا الافتراق والوداع حبيبين حقيقيين. بالنسبة لإدنا ذات الطبيعة الشاعرية الحساسة ما كان ممكناً التفكير بأي شيء أقل من ذلك.

عبر السنين عَبَرَ آلاف من أمثالهما هذه الشواطئ. هنا سكر آلاف العشاق بالحب، سحرهم جمال أشجار جوز الهند والشريط الساحلي الرائع، ثم غادروا حاملين حبهم وخيباتهم.

لم تكتب إدنا رسائل من أميركا. بدا أنها قطعت كل صلة لها ببلادنا، بحبها، بماضيها. كان ذلك تصرفاً سليماً من قبلها.

وجد إزمون عزاءَه مع نساء أخريات. أحبهن وتركهن. اختير عضواً في البرلمان، ثم عُيّن وزيراً للخارجية. حرصنا، حيثما تقابلنا، على عدم ذكر أشياء محددة. بقي حب إدنا جرحاً غائراً في كيانه.

لكن هذا الحب المنسي عكّر ذات يوم صفو حياتنا. كانت الأخبار مصدر أسى ممض وصدمتْنا على نحو لا يُصدّق. قيل إن إدنا كانت تقود السيارة عبر طريق عريضة إلى بيتها. صدمت بسيارتها الصغيرة خاصرة شاحنة. كان حادث اصطدام مقصود، لكن من عرف، إدنا، من عرف أعماق نفسها لم يقتنع بذلك.

طلبتْ في وصيتها حرق جثتها ونثر الرماد عبر الشاطئ المحبوب في إفريقيا. حملت الأمواج بقاياها، وهي الآن إلى الأبد منتمية أكثر إلى البحر...

راقب وزير خارجية بلاده إزمون وهو مستلقٍ على كرسيه الطويل بصمت تام زبد الأمواج حاملاً رماد حبيبته الميتة. لم يجرؤ على الاقتراب وملامسة الماء.

# الفهرس

الصفحة


الإهداء ..... ٥
تقديم..... ٧
قصة الألماس ..... ٩
الخلاسي ..... ٢٠
بين الحب والموت..... ٢٥
الحب الأبيض والفتاة السوداء ..... ٣٧
تشيكو..... ٥٠
نقطة دم ..... ٥٧
كوكو شريف ..... ٦٨
ماما فيفي، أين أعواد الثقاب؟..... ٨٢
الغابة في الإنسان..... ٩٢
المرشَّح ..... ١٠٢
الإصبع..... ١١٤
لحظات سوداء وبيضاء..... ١٢٢
الطاغية..... ١٣٢
الشواطئ التي غُسلتْ بالأمواج..... ١٤٠

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

# آفاق ثقافية

## هذا الكتاب

تتجلى في «سمفونية إفريقية» معرفة الكاتب العميقة بمجتمع إفريقيا الغربية عموماً وسيراليون بوجه خاص، التي تحصلتْ له عبر انخراطه في هذا المجتمع ومعايشة ناسه في حياتهم اليومية والعملية بحكم طبيعة عمله وشخصيته الاجتماعية. كما يتجلى في هذه المجموعة القصصية أيضاً تعاطف الكاتب الحميم مع السكان الأفارقة الأصليين الذين عانوا طويلاً من ثقل النير الاستعماري ومن ظلم الإنسان الأبيض عموماً الذي ما فتئ يستغل تخلفهم الحضاري لاستنزاف ونهب ثرواتهم وتدمير بيئتهم الجميلة وامتهان كرامتهم.

هكذا نجح كوبليان في تقديم لوحة بانورامية مدهشة ومثيرة لواقع مجتمعات غرب إفريقيا في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم حيث عاش وعمل، ولأحلام مواطنيها بالتحرر والتنمية والعيش الكريم غداة الاستقلال الوطني، ثم بداية انكسار هذه الأحلام لاحقاً. وعلى هذا الأساس شكلت هذه المجموعة القصصية بحق «سمفونية إفريقية» واستحقت بجدارة هذا العنوان.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
٢٠١٢م

السعر (٥٠) ل.س